تفسير سورة هود

هى مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . قال ابن عباس وقتادة : إلا آية وهى قوله : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار** ﴾ وأخرج النحاس فى ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : نزلت سورة هود بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن الزبير مثله . وأخرج الدارمى ، وأبو داود فى مراسيله ، وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر ، والبيهقى فى الشعب عن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « اقرؤوا هود يوم الجمعة » (١) وأخرج ابن المنذر والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر من طريق مسروق عن أبى بكر الصديق قال: قلت :يا رسول اللّه ، لقد أسرع إليك الشيب ، فقال : « شيبتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعمّ يتساءلون ، وإذا الشمس كورت » (٢). وأخرج البزار وابن مردويه من طريق أنس عنه مرفوعا بلفظ : قلت: يا رسول اللّه ، عجل إليك الشيب ، قال : « شيبتنى هود وأخواتها ، والواقعة ، والحاقة ، وعمّ يتساءلون ، وهل أتاك حديث الغاشية » . وأخرجه سعيد بن منصور، وابن مردويه ، عن أنس قال : قال أصحاب رسول الله ﷺ : لقد عجل إليك الشيب . فقال : « شيبتنى هود وأخواتها من المفصل » . وأخرج الترمذى وحسنه، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث والنشور من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله ، قد شبت ، قال : « شيبتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعمّ يتساءلون ، وإذا الشمس كورت » (٣). وأخرج ابن عساكر من طريق عطاء عنه أن الصحابه قالوا :يا رسول الله ، لقد أسرع إليك الشيب ، قال: « أجل شيبتنى هود وأخواتها ». قال عطاء : وأخواتها : اقتربت الساعة. والمرسلات ، وإذا الشمس كوّرت . وأخرج البيهقى فى الدلائل عن أبى سعيد الخدرى قال : قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، أسرع إليك الشيب ، قال:« شيبتنى هود وأخواتها : الواقعة،وعمّ يتساءلون ، وإذا الشمس كوّرت » (٤) . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدى قال : قال رسول اللّه ﷺ :« شيبتنى هود وأخواتها : الواقعة، والحاقة ، وإذا الشمس كوّرت » (٥) . وأخرجا أيضا عن ابن مسعود : أن أبا بكر قال : يا رسول اللّه ، ما شيبك ؟ قال : «هود والواقعة». وفى إسناده عمرو بن ثابت وهو متروك (٦) . وأخرج الطبرانى وابن مردويه بسند

---

(١) الدارمى ٢/ ٤٥٤ والبيهقى فى الشعب (٢٢١٤) ورجاله ثقات لكنه مرسل .
(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٤٠ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله رجال الصحيح » .
(٣) الترمذى فى التفسير (٣٢٩٧) وصححه الحاكم ٢/ ٣٤٣ على شرط البخارى ووافقه الذهبى .
(٤) البيهقى فى الدلائل ١/ ٣٥٨ .
(٥) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٤٠ : «رواه الطبرانى وفيه سعيد بن سلام العطار وهو كذاب » .
(٦) قال الهيثمى فى المجمع : ٧/ ٤٠ : « رواه الطبرانى وفى إسناده عمرو بن ثابت وهو متروك » .

صحيح عن عقبة بن عامر ، أن رجلا قال :يا رسول اللّه ، قد شبت ، قال:« شيبتنى هود ، وإذا الشمس كوّرت وأخواتها » [١] . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وعبد اللّه ابن أحمد فى زوائد الزهد، وأبو يعلى والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أبى جحيفة قال : قالوا : يا رسول اللّه ، نراك قد شبت ، قال : « شيبتنى هود وأخواتها » [٢] . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن عمران بن حصين ؛ أن رسول اللّه ﷺ قال له أصحابه : قد أسرع إليك الشيب ، قال : « شيبتنى هود وأخواتها من المفصل » . وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه أن رسول اللّه ﷺ قال : « شيبتنى هود وأخواتها وما فعل بالأمم قبل » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨)﴾.

قوله ﴿ **الر** ﴾ : إن كان مسرودا على سبيل التعديد كما فى سائر فواتح السور فلا محل له، وإن كان اسما للسورة فهو فى محل رفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده أو خبر مبتدأ محذوف، و﴿ **كتاب** ﴾ يكون على هذا الوجه خبرا لمبتدأ محذوف ، أى هذا كتاب ، وكذا على تقدير أن ﴿ **الر** ﴾ لامحل له، ويجوز أن يكون ﴿ **الر** ﴾ فى محل نصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو: اذكر،أو اقرأ ، فيكون ﴿ **كتاب** ﴾ على هذا الوجه خبر مبتدأ محذوف،

(١) الطبرانى (٧٩٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٤٠ : « ورجاله رجال الصحيح » .
(٢) أبو يعلى (٨٨٠) وإسناده ضعيف حيث إن على بن صالح متأخر السماع من أبى إسحاق السبيعى ، والطبرانى (٣١٨) .

والإشارة فى المبتدأ المقدرإما إلى بعض القرآن أو إلى مجموع القرآن، ومعنى﴿**أحكمت آياته**﴾: صارت محكمة متقنة لا نقص فيها ولا نقض لها كالبناء المحكم ، وقيل : معناه : إنها لم تنسخ بخلاف التوراة والإنجيل ، وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب ، وهو المحكم الذى لم ينسخ . وقيل : معناه : أحكمت آياته بالأمر والنهى ، ثم فصلت بالوعد والوعيد والثواب والعقاب . وقيل : أحكمها اللّه من الباطل ثم فصلها بالحلال والحرام . وقيل : أحكمت جملته ، ثم فصلت آياته . وقيل: جمعت فى اللوح المحفوظ ثم فصلت بالوحى ، وقيل : أيدت بالحجج القاطعة الدالة على كونها من عند الله ، وقيل معنى إحكامها أن لا فساد فيها ، أخذا من قولهم : أحكمت الدابة ، إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ، و ﴿ **ثم فصلت** ﴾ معطوف على ﴿ **أحكمت** ﴾ ، ومعناه ما تقدّم ، والتراخى المستفاد من « ثم » إما زمانى إن فسر التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح ، وإما رتبىّ إن فسر بغيره مما تقدّم ، والجمل فى محل رفع على أنها صفة لكتاب أو خبر آخر للمبتدأ أو خبر لمبتدأ محذوف ، وفى قوله : ﴿ **من لدن حكيم خبير** ﴾ لف ونشر ، لأن المعنى : أحكمها حكيم وفصلها خبير عالم بمواقع الأمور .

قوله : ﴿ **ألا تعبدوا إلا اللّه** ﴾ مفعول له حذف منه اللام ، كذا فى الكشاف [1] وفيه أنه ليس بفعل لفاعل الفعل المعلل . وقيل : « أنَّ » هى المفسرة لما فى التفصيل من معنى القول . وقيل : هو كلام مبتدأ منقطع عما قبله محكيا على لسان النبىّ ﷺ . قال الكسائى والفراء : التقدير: أحكمت بأن لا تعبدوا إلا اللّه . وقال الزجاج : أحكمت ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا اللّه ، ثم أخبرهم رسول اللّه ﷺ بأنه نذير وبشير فقال : ﴿ **إننى لكم منه نذير وبشير** ﴾ أى ينذرهم ويخوّفهم من عذابه لمن عصاه، ويبشرهم بالجنة والرضوان لمن أطاعه ، والضمير فى ﴿**منه** ﴾ راجع إلى اللّه سبحانه ، أى إننى لكم نذير وبشير من جهة اللّه سبحانه . وقيل: هومن كلام اللّه سبحانه كقوله: ﴿ ويحذركم اللّه نفسه ﴾ [آل عمران : ٢٨] .

قوله :﴿ **وأن استغفروا ربكم** ﴾ معطوف على ﴿ **ألا تعبدوا** ﴾ والكلام فى « أن » هذه كالكلام فى التى قبلها . وقوله : ﴿ **ثم توبوا إليه** ﴾ معطوف على ﴿ **استغفروا** ﴾ ، وقدم الإرشاد إلى الاستغفار على التوبة لكونه وسيلة إليها ، وقيل : إن التوبة من متممات الاستغفار. وقيل : معنى ﴿ **استغفروا** ﴾ : توبوا . ومعنى ﴿ **توبوا** ﴾ : أخلصوا التوبة واستقيموا عليها . وقيل : استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا من لاحقها . وقيل : استغفروا من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة .قال الفراء : « ثم » هاهنا بمعنى الواو ، أى وتوبوا إليه لأن الاستغفار هو التوبة ، والتوبة هى الاستغفار . وقيل : إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هى الغرض المطلوب ، والتوبة هى السبب إليها ، وما كان آخرا فى الحصول كان أوّلا فى الطلب . وقيل : استغفروا فى الصغائر وتوبوا إليه فى الكبائر ؛ ثم رتب على ما تقدّم

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٧ .

أمرين الأول : ﴿ **يمتعكم متاعا حسنا** ﴾ أصل الإمتاع :الإطالة، ومنه أمتع اللّه بك ؛ **فمعنى** الآية : يطول نفعكم فى الدنيا بمنافع حسنة مرضية من سعة الرزق ورغد العيش ﴿ **إلى أجل مسمى** ﴾ إلى وقت مقدّر عند اللّه وهو الموت . وقيل : القيامة . وقيل : دخول الجنة ؛ والأوّل أولى . والأمر الثانى : قوله : ﴿ **ويؤت كل ذى فضل فضله** ﴾ أى يعط كل ذى فضل فى الطاعة والعمل فضله ، أى جزاء فضله إما فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما جميعا ، والضمير فى ﴿ **فضله** ﴾ راجع إلى كل ذى فضل . وقيل : راجع إلى اللّه سبحانه على معنى: أن اللّه يعطى كل من فضلت حسناته فضله الذى يتفضل به على عباده . ثم توعدهم على مخالفة الأمر فقال : ﴿ **وإن تولوا** ﴾ أى تتولوا وتعرضوا عن الإخلاص فى العبادة والاستغفار والتوبة ﴿ **فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير** ﴾ وهو يوم القيامة ، ووصفه بالكبر لما فيه من الأهوال . وقيل : اليوم الكبير : يوم بدر .

ثم بين سبحانه عذاب اليوم الكبير بقوله:﴿ **إلى اللّه مرجعكم** ﴾ أى رجوعكم إليه بالموت. ثم البعث ، ثم الجزاء ، لا إلى غيره ﴿ **وهو على كل شىء قدير** ﴾ ومن جملة ذلك عذابكم على عدم الامتثال ، وهذه الجملة مقرّرة لما قبلها . ثم أخبر اللّه سبحانه بأن هذا الإنذار والتحذير والتوعد لم ينجع فيهم ، ولا لانت له قلوبهم ، بل هم مصرّون على العناد مصممون على الكفر ، فقال مصدرا لهذا الإخبار بكلمة التنبيه الدالة على التعجب من حالهم ، وأنه أمر ينبغى أن يتنبه له العقلاء ويفهموه ﴿ **ألا إنهم يثنون صدورهم** ﴾ يقال: ثنى صدره عن الشىء؛ إذا ازورّ عنه وانحرف منه ، فيكون فى الكلام كناية عن الإعراض ؛ لأن من أعرض عن الشىء ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه (١) . وقيل : معناه : يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والإعراض عن الحق ، فيكون فى الكلام كناية عن الإخفاء لما يعتقدونه من الكفر كما كان دأب المنافقين .والوجه الثانى أولى ، ويؤيده قوله : ﴿ **ليستخفوا منه** ﴾ أى ليستخفوا من اللّه فلا يطلع عليه رسوله والمؤمنين ، أو ليستخفوا من رسول اللّه ﷺ ؛ ثم كرّر كلمة التنبيه مبينا للوقت الذى يثنون فيه صدورهم فقال : ﴿ **ألا حين يستغشون ثيابهم** ﴾ أى يستخفون فى وقت استغشاء الثياب ، وهو التغطى بها ، وقد كانوا يقولون : إذا أغلقنا أبوابنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا ؟ وقيل : معنى ﴿ **حين يستغشون**﴾ :حين يأوون إلى فراشهم ويتدثرون بثيابهم . وقيل : إنه حقيقة وذلك أن بعض الكفار كان إذا مرّ به رسول اللّه ﷺ ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه لئلا يسمع كلام رسول اللّه ﷺ . وجملة : ﴿ **يعلم ما يسرّون وما يعلنون** ﴾ مستأنفة لبيان أنه لا فائدة لهم فى الاستخفاء ؛ لأن اللّه سبحانه يعلم ما يسرّونه فى أنفسهم أو فى ذات بينهم وما يظهرونه ، فالظاهر والباطن عنده سواء ، والسّر والجهر سيان ، وجملة ﴿**إنه عليم بذات الصدور**﴾ تعليل لما قبلها وتقرير له،

---

(١) ما بين الخاصرة إلى الضلع من الخلف .

و﴿ **ذات الصدور** ﴾ هى الضمائر التى تشتمل عليها الصدور ، وقيل : هى القلوب ، والمعنى: إنه عليم بجميع الضمائر ، أو عليم بالقلوب وأحوالها فى الإسرار والإظهار ، فلا يخفى عليه شىء من ذلك .

ثم أكد كونه عالما بكل المعلومات بما فيه غاية الامتنان ونهاية الإحسان فقال : ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على اللّه رزقها** ﴾ أى الرزق الذى تحتاج إليه من الغذاء اللائق بالحيوان على اختلاف أنواعه تفضلا منه وإحسانا، وإنما جىء به على طريق الوجوب كما تشعر به كلمة «على» اعتبارا بسبق الوعد به منه ، و« من » زائدة للتأكيد ، ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله: أن اللّه سبحانه لما كان لا يغفل عن كل حيوان باعتبار ما قسمه له من الرزق ، فكيف يغفل عن أحواله وأقواله وأفعاله. والدابة : كل حيوان يدب ﴿ **ويعلم مستقرّها** ﴾ أى محل استقرارها فى الأرض أو محل قرارها فى الأصلاب ﴿**ومستودعها** ﴾ موضعها فى الأرحام ، وما يجرى مجراها كالبيضة ونحوها . وقال الفراء : مستقرها :حيث تأوى إليه ليلا ونهارا ، ومستودعها : موضعها الذى تموت فيه ، وقد مرّ تمام الأقوال فى سورة الأنعام ، ووجه تقدّم المستقر على المستودع على قول الفراء ظاهر، وأما على القول الأوّل فلعل وجه ذلك : أن المستقر أنسب باعتبار ما هى عليه حال كونها دابة. والمعنى: وما من دابة فى الأرض إلا يرزقها اللّه حيث كانت من أماكنها بعد كونها دابة وقبل كونها دابة ، وذلك حيث تكون فى الرحم ونحوه ؛ ثم ختم الآية بقوله : ﴿ **كل فى كتاب مبين** ﴾ أى كل من ما تقدّم ذكره من الدواب ومستقرّها ومستودعها ورزقها فى كتاب مبين ، وهو اللوح المحفوظ ، أى مثبت فيه .

ثم أكد دلائل قدرته بالتعرّض لذكر خلق السموات والأرض ، وكيف كان الحال قبل خلقها فقال : ﴿ **وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام** ﴾ قد تقدّم بيان هذا فى الأعراف ، قيل : والمراد بالأيام : الأوقات ، أى فى ستة أوقات كما فى قوله : ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ [الأنفال : ١٦] وقيل : مقدار ستة أيام ، ولا يستقيم أن يكون المراد بالأيام هنا الأيام المعروفة ، وهى المقابلة لليالى ، لأنه لم يكن حينئذ لا أرض ولا سماء وليس اليوم إلا عبارة عن مدّة كون الشمس فوق الأرض ، وكان خلق السموات فى يومين ، والأرضين فى يومين ، وما عليهما من أنواع الحيوان والنبات والجماد فى يومين كما سيأتى فى حم السجدة . قوله : ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ أى كان قبل خلقهما عرشه على الماء ، وفيه بيان تقدّم خلق العرش والماء على السموات والأرضين .

قوله : ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ اللام متعلقة بخلق ، أى خلق هذه المخلوقات ليبتلى عباده بالاعتبار والتفكر والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث والجزاء أيهم أحسن عملا فيما أمر به ونهى عنه ، فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، ويوفر الجزاء لمن كان أحسن عملا من غيره ، ويدخل فى العمل الاعتقاد ، لأنه من أعمال القلب . وقيل : المراد

بالأحسن عملا: الأتمّ عقلا. وقيل : الأزهد فى الدنيا . وقيل : الأكثر شكرا . وقيل: الأتقى لله . قوله : ﴿ **ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولنّ الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ ثم لما كان الابتلاء يتضمن حديث البعث أتبع ذلك بذكره ، والمعنى : لئن قلت لهم يا محمد على ماتوجبه قضية الابتلاء: إنكم مبعوثون من بعد الموت فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، ليقولن الذين كفروا من الناس إن هذا الذى تقوله يا محمد إلا باطل كبطلان السحر وخدع كخدعه . ويجوز أن تكون الإشارة بـ ﴿ **هذا** ﴾ إلى القرآن ؛ لأنه المشتمل على الإخبار بالبعث . وقرأ حمزة والكسائى : « إن هذا إلا ساحر » يعنون النبى ﷺ وكسرت «إنّ » من قوله ﴿ **إنكم** ﴾ لأنها بعد القول . وحكى سيبويه الفتح على تضمين﴿ **قلت** ﴾ معنى : ذكرت ، أو على «أن » بمعنى : علّ أى ولئن قلت لعلكم مبعوثون ، على أن الرجاء باعتبار حال المخاطبين ، أى توقعوا ذلك ولا تبتوا القول بإنكاره .

﴿ **ولئن أخرنا عنهم العذاب** ﴾ أى الذى تقدّم ذكره فى قوله : ﴿ **عذاب يوم كبير** ﴾ وقيل : عذاب يوم القيامة وما بعده، وقيل :يوم بدر ﴿ **إلى أمة معدودة** ﴾ أى إلى طائفة من الأيام قليلة ؛ لأن ما يحصره العدّ قليل ، والأمة : اشتقاقها من الأم وهو القصد ، وأراد بها الوقت المقصود لإيقاع العذاب . وقيل : هى فى الأصل الجماعة من الناس ، وقد يسمى الحين باسم مايحصل فيه كقولك : كنت عند فلان صلاة العصر ، أى فى ذلك الحين ، فالمراد على هذا : إلى حين تنقضى أمة معدودة من الناس ﴿ **ليقولن مايحبسه** ﴾ أى أىّ شىء يمنعه من النزول استعجالا له على جهة الاستهزاء والتكذيب ، فأجابهم الله بقوله : ﴿ **ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم** ﴾ أى ليس محبوسا عنهم ، بل واقع بهم لا محالة ، و﴿ **يوم** ﴾ منصوب بـ﴿ **مصروفا** ﴾ ﴿ **وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون**﴾ أى أحاط بهم العذاب الذى كانوا يستعجلونه استهزاء منهم ، ووضع يستهزئون مكان يستعجلون ، لأن استعجالهم كان استهزاء منهم ، وعبر بلفظ الماضى تنبيها على تحقق وقوعه فكأنه قد حاق بهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد أنه قرأ : ﴿ **الر كتاب أحكمت آياته** ﴾ قال : هى كلها محكمة يعنى سورة هود ﴿ **ثم فصلت** ﴾ قال : ثم ذكر محمدا ﷺ فحكم فيها بينه وبين من خالفه وقرأ : ﴿ مثل الفريقين . . ﴾[هود: ٢٤] الآية كلها ، ثم ذكر قوم نوح ثم هود ، فكان هذا تفصيل ذلك ، وكان أوّله محكما قال : وكان أبى يقول ذلك ، يعنى زيد بن أسلم. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **كتاب أحكمت آياته** ﴾ قال : أحكمت بالأمر والنهى ، وفصلت بالوعد والوعيد . وأخرج هؤلاء عن مجاهد : ﴿ فصلت ﴾ قال : فسرت. وأخرج هؤلاء أيضا عن قتادة فى الآية قال: أحكمها الله من الباطل ثم فصلها بعلمه ، فبين حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته [١] ، وفى

(١) ابن جرير ١١/ ١٢٣ .

قوله : ﴿ **من لدن حكيم** ﴾ يعنى : من عند حكيم ، وفى قوله : ﴿ **يمتعكم متاعا حسنا** ﴾ قال : فأنتم فى ذلك المتاع فخذوه بطاعة اللّه ومعرفة حقه ، فإن اللّه منعم يحبّ الشاكرين وأهل الشكر فى مزيد من اللّه ، وذلك قضاؤه الذى قضاه ؛ وفى قوله : ﴿ **إلى أجل مسمى** ﴾ يعنى : الموت ، وفى قوله : ﴿ **يؤت كل ذى فضل فضله** ﴾ أى فى الآخرة . وأخرج هؤلاء أيضا عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يؤت كل ذى فضل فضله** ﴾ أى فى الآخرة . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : يؤت كل ذى فضل فى الإسلام فضل الدرجات فى الآخرة . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **ويؤت كل ذى فضل فضله** ﴾ قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشرحسنات ، فإن عوقب بالسيئة التى عملها فى الدنيا بقيت له عشرحسنات ، وإن لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول : هلك من غلب آحاده أعشاره [١] .

وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألا إنهم يثنون صدورهم** ﴾ الآية قال: كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم . قال البخارى : وعن ابن عباس ﴿ **يستغشون** ﴾ يغطون رؤوسهم . وروى البخارى أيضا عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية ، يعنى به الشك فى اللّه ، وعمل السيئات وكذا روى عن مجاهد والحسن وغيرهما ، أى أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئا أو عملوه ، فيظنون أنهم يستخفون من اللّه بذلك ، فأعلمهم سبحانه أنه حين يستغشون ثيابهم عند منامهم فى ظلمة الليل ﴿ **يعلم ما يسرّون** ﴾ من القول ﴿ **وما يعلنون** ﴾ [٢] . وأخرج سعيد بن منصور، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد اللّه بن شداد بن الهاد فى قوله : ﴿ **ألا إنهم يثنون صدورهم** ﴾ قال : كان المنافقون إذا مرّ أحدهم بالنبىّ ﷺ ثنى صدره وتغشى ثوبه لكيلا يراه ، فنزلت . وأخرج ابن جرير عن الحسن فى قوله : ﴿ **ألا حين يستغشون ثيابهم** ﴾ قال : فى ظلمة الليل فى أجواف بيوتهم . وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى رزين فى الآية قال : كان أحدهم يحنى ظهره ويستغشى بثوبه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : كانوا يخبون صدورهم لكيلا يسمعوا كتاب اللّه . قال تعالى : ﴿ **ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرّون** ﴾ وذلك أخفى ما يكون ابن آدم إذا أحنى ظهره واستغشى بثوبه ، وأضمر همه فى نفسه ، فإن اللّه لا يخفى عليه ذلك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال فى الآية : يكتمون ما فى قلوبهم ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما عملوا بالليل والنهار .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما من دابة** ﴾ الآية قال :

---

(١) ابن جرير ١١/ ١٢٤ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٦٨٣) .

يعنى كل دابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وما من دابة** ﴾ الآية قال : يعنى ما جاءها من رزق فمن الله ، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعا . ولكن ما كان لها من رزق لها فمن الله. وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ويعلم مستقرّها** ﴾ قال: حيث تأوى، و ﴿ **مستودعها** ﴾ قال : حيث تموت . وأخرج ابن أبى حاتم عنه ﴿ **ويعلم مستقرّها**﴾ قال : يأتيها رزقها حيث كانت . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : مستقرّها فى الأرحام ، ومستودعها حيث تموت، ويؤيد هذا التفسير الذى ذكره ابن مسعود ما أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : « إذا كان أجل أحدكم بأرض أتيحت له إليها حاجة ، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض ، فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعتنى» (١) .

وأخرج عبد الرزاق فى المصنف ، والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن قوله : ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ على أىّ شىء كان الماء ؟ قال : على متن الريح . وقد وردت أحاديث كثيرة فى صفة العرش ، وفى كيفية خلق السموات والأرض ليس هذا موضع ذكرها . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والحاكم فى التاريخ وابن مردويه عن ابن عمر قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ فقال :ما معنى ذلك يا رسول الله؟ قال : « ليبلوكم أيكم أحسن عقلا » ، ثم قال : « وأحسنكم عقلا : أورعكم عن محارم الله وأعملكم بطاعة الله » (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : إنكم أتمُّ عقلا. وأخرج أيضا عن سفيان قال : أزهدكم فى الدنيا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : لما نزلت : ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ [الأنبياء : ١] قال ناس : إن الساعة قد اقتربت فتناهوا ، فتناهى القوم قليلا ثم عادوا إلى أعمالهم أعمال السوء ، فأنزل الله : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ [النحل : ١] فقال ناس من أهل الضلال : هذا أمر الله قد أتى ، فتناهى القوم ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ **ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلى أمة معدودة** ﴾ قال: إلى أجل معدود . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة: ﴿ **ليقولنّ**

---

(١) ابن ماجة فى الزهد (٤٢٦٣) والطبرانى (١٠٤٠٣) قال البوصيرى فى الزوائد : « إسناده صحيح ورجاله ثقات » والحاكم ١/ ٣٦٧ وسكت عنه ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٩٨٨٩) .

(٢) ابن جرير ١٢/ ٤ وصححه الحاكم ٢/ ٣٤١ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

ما يحبسه ﴾ يعنى أهل النفاق . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله : ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ يقول : وقع بهم العذاب الذى استهزؤوا به .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤) مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١٧) ﴾ .

اللام فى : ﴿ ولئن أذقنا الإنسان ﴾ هى الموطئة للقسم ، والإنسان الجنس ، فيشمل المؤمن والكافر ، ويدل على ذلك الاستثناء بقوله : ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ وقيل : المراد : جنس الكفار ، ويؤيده أن اليأس والكفران والفرح والفخر هى أوصاف أهل الكفر لا أهل الإسلام فى الغالب . وقيل :المراد بالإنسان الوليد بن المغيرة. وقيل : عبدالله بن أمية المخزومى . والمراد بالرحمة هنا : النعمة من توفير الرزق والصحة والسلامة من المحن ﴿ ثم نزعناها منه ﴾ أى سلبناه إياها ﴿ إنه ليؤوس ﴾ أى آيس من الرحمة ، شديد القنوط من عودها وأمثالها ، والكفور : عظيم الكفران وهو الجحود بها قاله ابن الأعرابى ؛ وفى إيراد صيغتى المبالغة فى ﴿ ليؤوس كفور ﴾ ما يدلّ على أن الإنسان كثير اليأس، وكثير الجحد عند أن يسلبه الله بعض نعمه فلايرجو عودها ، ولا يشكر ما قد سلف له منها . وفى التعبير بالذوق ما يدلّ على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه ؛ لأن الإذاقة والذوق أقلّ ما يوجد به الطعم ، والنعماء : إنعام يظهر أثره على صاحبه، والضّراء : ظهور أثر الإضرار على من أصيب به . والمعنى : أنه إن أذاق الله سبحانه العبد نعماءه من الصحة والسلامة ، والغنى بعد أن كان فى ضرّ من فقر أو مرض أو خوف ، لم يقابل ذلك بما يليق

به من الشكر للّه سبحانه ، بل يقول : ذهب السيئات، أى المصائب التى ساءته من الضرّ والفقر والخوف والمرض عنه ، وزال أثرها غير شاكر للّه ولا مثن عليه بنعمه ﴿ **إنه لفرح فخور**﴾ أى كثير الفرح بطرا وأشرا ، كثير الفخر على الناس ، والتطاول عليهم بما يتفضل اللّه به عليه من النعم، وفى التعبير عن ملابسة الضرّ له بالمس مناسبة للتعبير فى جانب النعماء بالإذاقة، فإن كليهما لأدنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة، كما تقدّم . ﴿ **إلا الذين صبروا** ﴾ فإن عادتهم الصبر عند نزول المحن ، والشكر عند حصول المنن . قال الأخفش : هو استثناء ليس من الأوّل ، أى ولكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فى حالتى النعمة والمحنة . وقال الفراء: هو استثناء من ﴿ **لئن أذقناه** ﴾ أى من الإنسان ، فإن الإنسان بمعنى الناس ، والناس يشمل الكافر والمؤمن ، فهو استثناء متصل ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصول باعتبار اتصافه بالصبر وعمل الصالحات ﴿ **لهم مغفرة** ﴾ لذنوبهم ﴿ **وأجر** ﴾ يؤجرون به لأعمالهم الحسنة ﴿ **كبير** ﴾ متناه فى الكبر .

ثم سلّى اللّه سبحانه رسوله ﷺ ، فقال : ﴿ **فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك** ﴾ أى فلعلك لعظم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب ، واقتراح الآيات التى يقترحونها عليه على حسب هواهم وتعنتهم تارك بعض ما يوحى إليك مما أنزله اللّه عليك وأمرك بتبليغه ، مما يشق عليهم سماعه ، أو يستشقون العمل به ، كسبّ آلهتهم وأمرهم بالإيمان باللّه وحده . وقيل : وهذا الكلام خارج مخرج الاستفهام ، أى هل أنت تارك ؟ وقيل : هو فى معنى النفى مع الاستبعاد ، أى لا يكون منك ذلك ، بل تبلغهم جميع ما أنزل اللّه عليك ، أحبوا ذلك أم كرهوه ، شاؤوا أم أبوا ﴿ **وضائق به صدرك** ﴾ معطوف على ﴿ **تارك** ﴾ ، والضمير فى « به » راجع إلى « ما » أو إلى ﴿ **بعض** ﴾ ، وعبر بضائق دون ضيق لأن اسم الفاعل فيه معنى الحدوث والعروض والصفة المشبهة فيها معنى اللزوم ﴿ **أن يقولوا** ﴾ أى كراهة أن يقولوا ، أو مخافة أن يقولوا ، أو لئلا يقولوا ﴿ **لولا أنزل عليه كنز** ﴾ أى هلا أنزل عليه كنز ، أى مال مكنوز مخزون ينتفع به ﴿ **أو جاء معه ملك** ﴾ يصدّقه ويبين لنا صحة رسالته ؛ ثم بين سبحانه أن حاله ﷺ مقصور على النذارة ، فقال : ﴿ **إنما أنت نذير** ﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك ، وليس عليك حصول مطلوبهم وإيجاد مقترحاتهم ﴿ **واللّه على كل شىء وكيل** ﴾ يحفظ ما يقولون وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل .

قوله : ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ « أم » هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة ، وأضرب عما تقدّم من تهاونهم بالوحى ، وعدم قنوعهم بما جاء به من المعجزات الظاهرة ، وشرع فى ذكر ارتكابهم لما هو أشدّ من ذلك ، وهو افتراؤهم عليه بأنه افتراه ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والضمير المستتر فى﴿ **افتراه** ﴾ للنبى ﷺ ، والبارز إلى ما يوحى . ثم أمره اللّه سبحانه أن يجيب عليهم بما يقطعهم ويبين كذبهم ويظهر به عجزهم فقال : ﴿ **قل فأتوا بعشر سور مثله**﴾

أى مماثلة له فى البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ وفخامة المعانى، ووصف السور بما يوصف به المفرد ، فقال: مثله ولم يقل: أمثاله؛ لأن المراد مماثلة كل واحد من السور ، أو لقصد الإيماء إلى وجه الشبه ، ومداره المماثلة فى شىء واحد ، وهو البلاغة البالغة إلى حدّ الإعجاز وهذا إنما هو على القول بأن المطابقة فى الجمع والتثنية والإفراد شرط ، ثم وصف السور بصفة أخرى ، فقال : ﴿ **مفتريات وادعوا** ﴾ للاستظهار على المعارضة **بالعشر** السور ﴿ **من استطعتم** ﴾ دعاءه وقدرتم على الاستعانة به من هذا النوع الإنسانى ، وممن تعبدونه وتجعلونه شريكا للّه سبحانه . وقوله : ﴿ **من دون اللّه** ﴾ متعلق بـ﴿ **ادعوا** ﴾ أى ادعوا من استطعتم متجاوزين اللّه تعالى ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فيما تزعمون من افترائى له .

﴿ **فإن لم يستجيبوا لكم** ﴾ أى فإن لم يفعلوا ما طلبته منهم وتحدّيتهم به من الإتيان بعشر سور مثله ولا استجابوا إلى المعارضة المطلوبة منهم ويكون الضمير فى « لكم » لرسول اللّه ﷺ وللمؤمنين ، أو للنبى ﷺ وحده وجمع تعظيما وتفخيما ﴿ **فاعلموا** ﴾ أمر لرسول اللّه ﷺ وللمؤمنين أو للرسول ﷺ وحده على التأويل الذى سلف قريبا . ومعنى أمرهم بالعلم : أمرهم بالثبات عليه ؛ لأنهم عالمون بذلك من قبل عجز الكفار عن الإتيان بعشر سور مثله ، أو المراد بالأمر **بالعلم** : الأمر بالازدياد منه إلى حدّ لا يشوبه شك ولا تخالطه شبهة وهو علم اليقين ، والأوّل أولى . ومعنى ﴿ **أنما أنزل بعلم اللّه** ﴾: أنه أنزل متلبسا بعلم اللّه المختص به، الذى لا تطلع على كنهه العقول ولا تستوضح معناه الأفهام ، لما اشتمل عليه من الإعجاز الخارج عن طوق البشر ﴿ **وأن لا إله إلا هو** ﴾ أى واعلموا أن اللّه هو المتفرد بالألوهية لا شريك له، ولا يقدر غيره على ما يقدر عليه. ثم ختم الآية بقوله: ﴿ **فهل أنتم مسلمون** ﴾ أى ثابتون على الإسلام مخلصون له مزدادون من الطاعات، لأنه قد حصل لكم بعجز الكفار عن الإتيان بمثل عشر سور من هذا الكتاب طمأنينة فوق ما كنتم عليه وبصيرة زائدة ، وإن كنتم مسلمين من قبل هذا فإن الثبوت عليه وزيادة البصيرة فيه والطمأنينة به مطلوب منكم . وقيل : إن الضمير فى ﴿ **فإن لم يستجيبوا** ﴾ للموصول فى ﴿ **من استطعتم** ﴾، وضمير ﴿ **لكم** ﴾ للكفار الذين تحدّاهم رسول اللّه ﷺ ، وكذلك ضمير ﴿ **فاعلموا** ﴾ والمعنى : فإن لم يستجب لكم من دعوتموهم للمعاضدة والمناصرة على الإتيان بعشر سور من سائر الكفار ومن يعبدونهم، ويزعمون أنهم يضرّون وينفعون ، فاعلموا أن هذا القرآن الذى أنزله اللّه على هذا الرسول خارج عن قدرة غيره سبحانه وتعالى ، لما اشتمل عليه من الإعجاز الذى تتقاصر دونه قوّة المخلوقين ، وأنه أنزل بعلم اللّه الذى لا تحيط به العقول ولا تبلغة الأفهام ، واعلموا أنه المنفرد بالألوهية لا شريك له ، فهل أنتم بعد هذا مسلمون ؟ أى داخلون فى الإسلام متبعون لأحكامه مقتدون بشرائعه . وهذا الوجه أقوى من الوجه الأوّل من جهة وأضعف منه من جهة ، فأما جهة قوّته: فلاتساق الضمائر وتناسبها ، وعدم احتياج بعضها إلى تأويل ، وأما ضعفه : فَلِما فى ترتيب الأمر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوهم واستعانوا بهم من الخفاء واحتياجه إلى

تكلف . وهو أن يقال : إن عدم استجابة من دعوهم واستعانوا بهم من الكفار والآلهة مع حرصهم على نصرهم ومعاضدتهم ومبالغتهم فى عدم إيمانهم واستمرارهم على الكفر يفيد حصول العلم لهؤلاء الكفار بأن هذا القرآن من عند اللّه ، وأن اللّه سبحانه هو الإله وحده لا شريك له، وذلك يوجب دخولهم فى الإسلام. واعلم أنه قد اختلف التحدّى للكفار بمعارضة القرآن ، فتارة وقع بمجموع القرآن كقوله :﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ [الإسراء : ٨٨] وبعشر سور كما فى هذه الآية ، وذلك لأن العشرة أوّل عقد من العقود ، وبسورة منه كما تقدّم ؛ وذلك لأن السورة أقلّ طائفة منه.

ثم إن اللّه سبحانه توعد من كان مقصور الهمة على الدنيا لا يطلب غيرها ولا يريد سواها فقال: ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها** ﴾ قال الفراء: إن ﴿**كان**﴾ هذه زائدة ، ولهذا جزم الجواب . وقال الزجاج : ﴿ **من كان** ﴾ فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه ﴿ **نوفّ إليهم** ﴾ أى من يكن يريد واختلف أهل التفسير فى هذه الآية. فقال الضحاك: نزلت فى الكفار ، واختاره النحاس بدليل الآية التى بعدها ﴿ **أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار** ﴾ . وقيل : الآية واردة فى الناس على العموم كافرهم ومسلمهم ، والمعنى : أن من كان يريد بعمله حظّ الدنيا يكافأ بذلك ، والمراد بزينتها : ما يزينها ويحسنها من الصحة والأمن والسعة فى الرزق وارتفاع الحظّ ونفاذ القول ونحو ذلك . وإدخال ﴿ **كان** ﴾ فى الآية يفيد أنهم مستمرّون على إرادة الدنيا بأعمالهم لا يكادون يريدون الآخرة ، ولهذا قيل : إنهم مع إعطائهم حظوظ الدنيا يعذّبون فى الآخرة لأنهم جرّدوا قصدهم إلى الدنيا ولم يعملوا للآخرة . وظاهر قوله : ﴿ **نوفّ إليهم أعمالهم فيها** ﴾ أن من أراد بعمله الدنيا حصل له الجزاء الدنيوى ولا محالة ، ولكنَّ الواقع فى الخارج يخالف ذلك . فليس كل متمنّ ينال من الدنيا أمنيته وإن عمل لها وأرادها ، فلابدّ من تقييد ذلك بمشيئة اللّه سبحانه . قال القرطبى : ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة ، وكذلك الآية التى فى الشورى ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها﴾ [الشورى : ٢٠] وكذلك ﴿ ومن يُرد ثواب الدنيا نؤته منها ﴾ [آل عمران : ١٤٥] قيدتها وفسرتها التى فى سبحان ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ [الإسراء: ١٨] قوله :﴿ **وهم فيها لا يبخسون**﴾ أى و هؤلاء المريدون بأعمالهم الدنيا هم فيها ، أى فى الدنيا لا يبخسون ، أى لا ينقصون من جزائهم فيها بحسب أعمالهم لها ، وذلك فى الغالب وليس بمطرد ، بل إن قضت به مشيئته سبحانه ، ورجحته حكمته البالغة . وقال القاضى : معنى الآية : من كان يريد بعمل الخير الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم وافية كاملة من غير بخس فى الدنيا ، وهو ما ينالون من الصحة والكفاف وسائر اللذات والمنافع ، فخصّ الجزاء بمثل ما ذكره وهو حاصل لكل عامل للدنيا ولو كان قليلا يسيرا .

قوله : ﴿ **أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار** ﴾ الإشارة إلى المريدين المذكورين ، ولا بدّ من تقييد هذا بأنهم لم يريدوا الآخرة بشىء من الأعمال المعتدّ بها الموجبة للجزاء الحسن فى الدار الآخرة ، أو تكون الآية خاصة بالكفار كما تقدّم ﴿ **وحبط ما صنعوا** ﴾ أى ظهر فى الدار الآخرة حبوط ما صنعوه من الأعمال التى كانت صورتها صورة الطاعات الموجبة للجزاء الأخروى ، لولا أنهم أفسدوها بفساد مقاصدهم ، وعدم الخلوص ، وإرادة ما عند اللّه فى دار الجزاء ، بل قصروا ذلك على الدنيا وزينتها ؛ ثم حكم سبحانه ببطلان عملهم فقال : ﴿**وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ أى أنه كان عملهم فى نفسه باطلا غير معتدّ به ؛ لأنه لم يعمل لوجه صحيح يوجب الجزاء ، ويترتب عليه مايترتب على العمل الصحيح .

قوله : ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه** ﴾ بين سبحانه أن بين من كان طالبا للدنيا فقط ، ومن كان طالبا للآخرة تفاوتا عظيما ، وتباينا بعيدا ، والمعنى : أفمن كان على بينة من ربه فى اتباع النبىّ ﷺ والإيمان باللّه كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها . وقيل : المراد بمن كان على بينة من ربه بالنبى ﷺ ، أى أفمن كان معه بيان من اللّه ومعجزة كالقرآن ومعه شاهد كجبريل ، وقد بشرت به الكتب السالفة،كمن كان يريد الحياة وزينتها . ومعنى البينة : البرهان الذى يدلّ على الحق ، والضمير فى قوله : ﴿ **ويتلوه شاهد** ﴾ راجع إلى البينة باعتبار تأويلها بالبرهان ، والضمير فى ﴿ **منه** ﴾ راجع إلى القرآن ؛ لأنه قد تقدّم ذكره فى قوله : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ [يونس : ٣٨] أو راجع إلى اللّه تعالى . والمعنى : ويتلو البرهان الذى هو البينة شاهد يشهد بصحته من القرآن ، أو من اللّه سبحانه . والشاهد : هو الإعجاز الكائن فى القرآن ، أو المعجزات التى ظهرت لرسول اللّه ﷺ ، فإن ذلك من الشواهد التابعة للقرآن . وقال الفراء : قال بعضهم : ﴿ **ويتلوه شاهد منه** ﴾ : الإنجيل، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن فى التصديق ، والهاء فى : ﴿ **منه** ﴾ للّه عزّ وجلّ ؛ وقيل : المراد بمن كان على بينة من ربه : هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد اللّه بن سلام وأضرابه .

قوله : ﴿ **ومن قبله كتاب موسى** ﴾ معطوف على شاهد ، والتقدير : ويتلو الشاهد شاهد آخر من قبله هو كتاب موسى ، فهو وإن كان متقدمًا فى النزول فهو يتلو الشاهد فى الشهادة ، وإنما قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخرا فى الوجود لكونه وصفا لازما غير مفارق ، فكان أغرق فى الوصفية من كتاب موسى . ومعنى شهادة كتاب موسى ، وهو التوراة : أنه بشر بمحمد ﷺ وأخبر بأنه رسول من اللّه . قال الزجاج : والمعنى : ويتلوه من قبله كتاب موسى ؛ لأن النبى ﷺ موصوف فى كتاب موسى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل . وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ : «ومن قبله كتاب موسى » بالنصب ، وحكاه الهدوى عن الكلبى فيكون معطوفا على الهاء فى ﴿ **يتلوه** ﴾ . والمعنى :ويتلو كتاب موسى جبريل ، وانتصاب ﴿ **إماما ورحمة** ﴾ على الحال ، والإمام : هو الذى يؤتمّ به فى الدين ويقتدى به ،

والرحمة : النعمة العظيمة التى أنعم اللّه بها على من أنزله عليهم ، وعلى من بعدهم باعتبار ما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية الموافقة لحكم القرآن ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى المتصفين بتلك الصفة الفاضلة ، وهو الكون على البينة من اللّه ، واسم الإشارة مبتدأ وخبره ﴿**يؤمنون به** ﴾ أى يصدّقون بالنبىّ ﷺ أوبالقرآن ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب** ﴾ أى بالنبىّ أو بالقرآن . والأحزاب المتحزّبون على رسول اللّه ﷺ من أهل مكة وغيرهم ، أو المتحزّبون من أهل الأديان كلها ﴿ **فالنار موعده** ﴾ أى هو من أهل النار لا محالة ، وفى جعل النار موعدا إشعار بأن فيها ما لا يحيط به الوصف من أفانين العذاب ، ومثله قول حسان :

أوردتموها حياض الموت صاحية   فالنار موعدها والموت لاقيها

﴿ **فلا تك فى مرية منه** ﴾ أى لاتك فى شك من القرآن، وفيه تعريض بغيره ﷺ لأنه معصوم عن الشك فى القرآن، أو من الموعد ﴿ **إنه الحق من ربك** ﴾ فلا مدخل للشك فيه بحال من الأحوال ﴿ **ولكنّ أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ بذلك مع وجوب الإيمان به ، وظهور الدلائل الموجبة له ، ولكنهم يعاندون مع علمهم بكونه حقا ، أو قد طبع على قلوبهم فلا يفهمون أنه الحق أصلا .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله :﴿ **فهل أنتم مسلمون** ﴾ قال : لأصحاب محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبوالشيخ وابن مردويه عن أنس فى قوله:﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها** ﴾ قال : نزلت فى اليهود والنصارى . وأخرج ابن أبى حاتم عن عبد اللّه بن معبد قال : قام رجل إلى علىّ فقال : أخبرنا عن هذه الآية : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا** ﴾ إلى قوله:﴿ **وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ قال : ويحك ذاك من كان يريد الدنيا لا يريد الآخرة . وأخرج النحاس عن ابن عباس ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا** ﴾ أى ثوابها ﴿ **وزينتها** ﴾ مالها ﴿ **نوفّ إليهم** ﴾ نوفر لهم بالصحة والسرور فى الأهل والمال والولد﴿ **وهم فيها لا يبخسون** ﴾ لا ينقصون . ثم نسخها :﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء ﴾ الآية [الإسراء : ١٨] . وأخرج أبو الشيخ عن السدّى مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية قال : من عمل صالحا : التماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا ، يقول اللّه أوفيه الذى التمس فى الدنيا وحبط عمله الذى كان يعمل ، وهو فى الآخرة من الخاسرين . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : نزلت هذه الآية فى أهل الشرك . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن فى قوله : ﴿ **نوفّ إليهم أعمالهم** ﴾ قال : طيباتهم . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن السدّى فى قوله : ﴿ **وحبط ما صنعوا فيها** ﴾ قال : حبط ماعملوا من خير وبطل فى الآخرة ليس لهم فيها جزاء . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد فى الآية قال : هم

obeikandi.com

أهل الرياء .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ، وأبو نعيم فى المعرفة عن علىّ بن أبى طالب قال : ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن ، فقال له رجل : ما نزل فيك ؟ قال : أما تقرأ سورة هود : ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه** ﴾ رسول الله ﷺ بينة من ربه ، وأنا شاهد منه . وأخرج ابن عساكر وابن مردويه من وجه آخر عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أفمن كان على بينة من ربه : أنا ، ويتلوه شاهد منه : علىٌّ » . وأخرج أبو الشيخ عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه** ﴾ قال : ذاك محمد ﷺ . وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو الشيخ عن محمد بن علىّ بن أبى طالب قال : قلت لأبى : إن الناس يزعمون فى قول الله سبحانه : ﴿ **ويتلوه شاهد منه** ﴾ أنك أنت التالى ، قال : وددت أنى أنا هو ، ولكنه لسان محمد ﷺ . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة عن ابن عباس ؛ أن الشاهد جبريل ووافقه سعيد بن جبير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال :جبريل فهو شاهد من الله بالذى يتلوه من كتاب الله الذى أنزل على محمد﴿ **ومن قبله كتاب موسى** ﴾ قال : ومن قبله التوراة على لسان موسى كما تلا القرآن على لسان محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن عساكرعن الحسن بن علىّ فى قوله:﴿ **ويتلوه شاهد منه** ﴾ قال : محمد هو الشاهد من الله . وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم : ﴿ **ومن قبله كتاب موسى** ﴾ قال:ومن قبله جاء الكتاب إلى موسى . وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب** ﴾ قال : الكفار أحزاب كلهم على الكفر. وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب** ﴾ قال : من اليهود والنصارى .

﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ** ﴾

يستويان مثلاً أفلا تذكرون (٢٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا** ﴾ أى لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذبا بقولهم لأصنامهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، وقولهم : الملائكة بنات الله ، وأضافوا كلامه سبحانه إلى غيره ، واللفظ وإن كان لا يقتضى إلا نفى وجود من هو أظلم منهم كما يفيده الاستفهام الإنكارى ، فالمقام يفيد نفى المساوى لهم فى الظلم . فالمعنى على هذا: لا أحد مثلهم فى الظلم فضلا عن أن يوجد من هو أظلم منهم ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الموصوفين بالظلم المتبالغ ، وهو مبتدأ ، وخبره ﴿ **يعرضون على ربهم** ﴾ فيحاسبهم على أعمالهم ، أو المراد بعرضهم :عرض أعمالهم:﴿ **ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم** ﴾ الأشهاد :هم الملائكة الحفظة ، وقيل : المرسلون . وقيل : الملائكة والمرسلون والعلماء الذين بلغوا ما أمرهم الله بإبلاغه . وقيل : جميع الخلائق . والمعنى : أنه يقول هؤلاء الأشهاد عند العرض : هؤلاء المعرضون أو المعروضة أعمالهم الذين كذبوا على ربهم بما نسبوه إليه ولم يصرّحوا بما كذبوا به ، كأنه كان أمرا معلوما عند أهل ذلك الموقف . قوله : ﴿ **ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾ هذا من تمام كلام الأشهاد ، أى يقولون هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ويقولون : **ألا** لعنة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالافتراء ، ويجوز أن يكون من كلام الله سبحانه قاله بعد ما قال الأشهاد : ﴿ **هؤلاء الذين كذبوا على ربهم** ﴾. والأشهاد جمع شهيد ، ورجحه أبو علىّ بكثرة ورود شهيد فى القرآن كقوله : ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ [البقرة : ١٤٣] ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ [النساء : ٤١] . وقيل : هو جمع شاهد كأصحاب وصاحب ،والفائدة فى قول الأشهاد بهذه المقالة المبالغة فى فضيحة الكفار ، والتقريع لهم على رؤوس الأشهاد .

ثم وصف هؤلاء الظالمين الذين لعنوا بأنهم ﴿ **الذين يصدّون عن سبيل الله** ﴾ أى يمنعون من قدروا على منعه عن دين الله والدخول فيه ﴿ **ويبغونها عوجا** ﴾ أى يصفونها بالاعوجاج تنفيرا للناس عنها : أو يبغون أهلها أن يكونوا معوجين بالخروج عنها إلى الكفر ، يقال:بغيتك شراً ، أى طلبته لك ، والحال أنهم ﴿ **بالآخرة هم كافرون** ﴾ أى يصفونها بالعوج ، والحال أنهم بالآخرة غيرمصدّقين فكيف يصدّون الناس عن طريق الحق وهم على الباطل البحت؟ وتكريرالضمير لتأكيدكفرهم واختصاصهم به،حتى كأن كفرغيرهم غيرمعتدّ به بالنسبة إلى عظيم كفرهم ﴿ **أولئك** ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿ **لم يكونوا معجزين فى الأرض** ﴾ أى ما كانوا يعجزون الله فى الدنيا إن أراد عقوبتهم ﴿ **وما كان لهم من دون الله من أولياء** ﴾ يدفعون عنهم ما يريده الله سبحانه من عقوبتهم وإنزال بأسه بهم ، وجملة ﴿ **يضاعف لهم العذاب** ﴾ مستأنفة لبيان أن تأخير العذاب والتراخى عن تعجيله لهم ليكون عذابا مضاعفا. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويزيد ويعقوب:«يضعف » مشدّدا ﴿ **ما كانوا يستطيعون السمع** ﴾ أى أفرطوا فى

إعراضهم عن الحق وبغضهم له حتى كأنهم لا يقدرون على السمع ولا يقدرون على الإبصار لفرط تعاميهم عن الصواب . ويجوز أن يراد بقوله : ﴿ **وما كان لهم من دون الله من أولياء** ﴾ أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله ولا ينفعهم ذلك ، فما كان هؤلاء الأولياء يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ، فكيف ينفعونهم فيجلبون لهم نفعا أو يدفعون عنهم ضررا ، ويجوز أن تكون « ما » هى المدّية . والمعنى : أنه يضاعف لهم العذاب مدّة استطاعتهم السمع والبصر . قال الفراء : ما كانوا يستطيعون السمع لأن الله أضلهم فى اللوح المحفوظ . وقال الزجاج : لبغضهم النبى ﷺ وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفهموا عنه . قال النحاس : هذا معروف فى كلام العرب ، يقال : فلان لا يستطيع أن ينظر إلى فلان ، إذا كان ثقيلا عليه ﴿ **أولئك** ﴾ المتصفون بتلك الصفات ﴿ **الذين خسروا أنفسهم** ﴾ بعبادة غير الله. والمعنى : اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله فكان خسرانهم فى تجارتهم أعظم خسران ﴿**وضلّ عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أى ذهب وضاع ما كانوا يفترون من الآلهة التى يدّعون أنها تشفع لهم ولم يبق بأيديهم إلا الخسران .

قوله :﴿ **لا جرم** ﴾ قال الخليل وسيبويه :« لا جرم » بمعنى حق فهى عندهما بمنزلة كلمة واحدة ، وبه قال الفراء . وروى عن الخليل والفراء أنها بمنزلة قولك : لابدّ ولا محالة ، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا. وقال الزجاج : إن جرم بمعنى كسب ، أى كسب ذلك الفعل لهم الخسران ، وفاعل كسب مضمر ، وأنّ منصوبة بجرم . قال الأزهرى : وهذا من أحسن ما نقل فى هذه اللغة . وقال الكسائى : معنى لا جرم : لا صدّ ولا منع عن أنهم فى الآخرة هم الأخسرون . وقال جماعة من النحويين :إن معنى لاجرم لا قطع قطع ﴿ **أنهم فى الآخرة هم الأخسرون** ﴾ قالوا : والجرم : القطع ، وقد جرم النخل واجترمه ، أى قطعه ، وفى هذه الآية بيان أنهم فى الخسران قد بلغوا إلى حدّ يتقاصر عنه غيرهم ولا يبلغ إليه ، وهذه الآيات مقرّرة لما سبق من نفى المماثلة بين من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ، وبين من كان على بينة من ربه ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ أى صدقوا بكل ما يجب التصديق به من كون القرآن من عند الله وغير ذلك من خصال الإيمان ﴿ **وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم** ﴾ أى أنابوا إليه ، وقيل :خشعوا . وقيل :خضعوا . قيل: وأصل الإخبات:الاستواء فى الخبت، وهو الأرض المستوية الواسعة فيناسب معنى الخشوع والاطمئنان . قال الفراء : إلى ربهم، ولربهم واحد ﴿ **أولئك** ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الصالحة ﴿ **أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ .

قوله : ﴿ **مثل الفريقين كالأعمى والأصمّ والبصير والسميع** ﴾ ضرب للفريقين مثلا وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصمّ ، وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع،على أن كل فريق شبه بشيئين ، أوشبه بمن جمع بين الشيئين ، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى

والصمم ، والمؤمن شبه بمن جمع بين السمع والبصر ، وعلى هذا تكون الواو فى ﴿والأصم﴾، وفى ﴿ **والسميع** ﴾ لعطف الصفة على الصفة ، كما فى قول الشاعر :

إلى الملك القرْم (١) وابن الهُمام (٢)

والاستفهام فى قوله: ﴿ **هل يستويان** ﴾ للإنكار: يعنى الفريقين، وهذه الجملة مقرّرة لما تقدّم من قوله: ﴿ **أفمن كان على بينة من ربه** ﴾ وانتصاب مثلا على التمييز من فاعل يستويان ، أى هل يستويان حالا وصفة ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ فى عدم استوائهما وفيما بينهما من التفاوت الظاهر الذى لايخفى على من له تذكر ، وعنده تفكر وتأمل ، والهمزة لإنكار عدم التذكر واستبعاد صدوره عن المخاطبين .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ومن أظلم** ﴾ قال : الكافر والمنافق ﴿ **أولئك يعرضون على ربهم** ﴾ فيسألهم عن أعمالهم ﴿ **ويقول الأشهاد** ﴾ الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم فى الدنيا ﴿ **هؤلاء الذين كذبوا على ربهم** ﴾ شهدوا به عليهم يوم القيامة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : « الأشهاد : الملائكة » . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة نحوه . وفى الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله يدنى المؤمن حتى يضع كنفه (٣) ويستره من الناس ويقرّره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : ربّ ، أعرف ، حتى إذا قرّره بذنوبه ، ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : ﴿ **هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾ (٤) .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدّى فى قوله : ﴿ **الذين يصدّون عن سبيل الله**﴾ قال : هو محمد يعنى سبيل الله ، صدّت قريش عنه الناس . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **ويبغونها عوجا** ﴾ يعنى : يرجون بمكة غير الإسلام دينا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض** ﴾ الآية قال : أخبر الله سبحانه أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فإنه قال : ﴿ **ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون** ﴾ وأما فى الآخرة فإنه قال : ﴿ فلا يستطيعون . خاشعة ﴾ [القلم : ٤٢، ٤٣] . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **ما كانوا يستطيعون السمع** ﴾ قال : ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا خيرا فينتفعوا به . ولا يبصروا خيرا فيأخذوا به .

---

(١) القرم : المعظم والمبجل . (٢) الهمام : الشجاع .

(٣) كَنَفَهُ : ستره وعفوه .

(٤) أحمد ٢/ ٧٤ والبخارى فى المظالم (٢٤٤١) ومسلم فى التوبة (٢٧٦٨/ ٥٢) وابن ماجة فى المقدمة (١٨٣).

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أخبتوا** ﴾ قال: خافوا . وأخرج ابن جرير عنه قال:الإخبات : الإنابة . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ قال: الإخبات : الخشوع والتواضع . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد قال : اطمأنوا . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مثل الفريقين كالأعمى والأصم** ﴾ قال : الكافر ﴿ **والبصير والسميع** ﴾ قال : المؤمن .

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)** ﴾ .

لما أورد سبحانه على الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ أنواع الدلائل التى هى أوضح من الشمس ، أكد ذلك بذكر القصص على طريقة التفنن فى الكلام ، ونقله من أسلوب إلى أسلوب لتكون الموعظة أظهر والحجة أبين ، والقبول أتمّ ، فقال : ﴿**ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين** ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بفتح الهمزة على تقدير حرف الجر، أى أرسلناه بأنى ، أى أرسلناه متلبسا بذلك الكلام ، وهو أنى لكم نذير مبين . وقرأ الباقون بالكسر على إرادة القول ، أى قائلا :إنى لكم ، والواو فى :﴿ **ولقد** ﴾ للابتداء ، واللام هى الموطئة للقسم ، واقتصر على النذارة دون البشارة، لأن دعوته كانت لمجرد الإنذار ، أو لكونهم لم يعملوا بما بشرهم به ، وجملة : ﴿ **أن لا تعبدوا إلا الله** ﴾ بدل من إنى لكم نذير مبين ، أى أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله ، أو تكون أن مفسرة متعلقة بأرسلنا ، أو بنذير، أو بمبين ، وجملة : ﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾ تعليلية . والمعنى :

نهيتكم عن عبادة غير اللّه لأنى أخاف عليكم ، وفيها تحقيق لمعنى الإنذار ، واليوم الأليم: هو يوم القيامة ، أو يوم الطوفان ، ووصفه بالأليم من باب الإسناد المجازى مبالغة .

ثم ذكر ما أجاب به قومه عليه وهذا الجواب يتضمن الطعن منهم فى نبوّته من ثلاث جهات فقال : ﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه** ﴾ والملأ : الأشراف ، كما تقدم غير مرة ، ووصفهم بالكفر ذما لهم ، وفيه دليل على أن بعض أشراف قومه لم يكونوا كفرة ﴿ **ما نراك إلا بشرا مثلنا** ﴾ هذه الجهة الأولى من جهات طعنهم فى نبوّته، أى نحن وأنت مشتركون فى البشرية فلم يكن لك علينا مزية تستحق بها النبوّة دوننا ، والجهة الثانية : ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا** ﴾ ولم يتبعك أحد من الأشراف، فليس لك مزية علينا باتباع هؤلاء الأراذل بك. والأرذل جمع أرذل ، وأرذل جمع رذل مثل : أكالب وأكلب وكلب . وقيل : الأراذل جمع الأرذل كالأساود جمع أسود ، وهم السفلة . قال النحاس : الأراذل: الفقراء والذين لا حسب لهم ، والحسب الصناعات . قال الزجاج : نسبوهم إلى الحياكة ، ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها فى الديانة . وقال ثعلب عن ابن الأعرابى : السفلة هو الذى يصلح الدنيا بدينه ، قيل له : فمن سفلة السفلة ؟ قال : الذى يصلح دنيا غيره بفساد دينه . والظاهر من كلام أهل اللغة أن السفلة هو الذى يدخل فى الحرف الدنية . والرؤية فى الموضعين إن كانت القلبية فـ﴿ **بشرا** ﴾ فى الأوّل و﴿ **اتبعك** ﴾ فى الثانى هما المفعول الثانى ، وإن كانت البصرية فهما منتصبان على الحال وانتصاب ﴿ **بادى الرأى** ﴾ على الظرفية والعامل فيه ﴿ **اتبعك** ﴾ . والمعنى : فى ظاهر الرأى من غير تعمق ، يقال : بدا يبدو : إذا ظهر . قال الأزهرى : معناه : فيما يبدو لنا من الرأى . والوجه الثالث من جهات قدحهم فى نبوّته : ﴿**وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾ خاطبوه فى الوجهين الأولين منفردا ، وفى هذا الوجه خاطبوه مع متبعيه ، أى ما نرى لك ولمن اتبعك من الأراذل علينا من فضل يتميزون به وتستحقون ماتدّعونه ، ثم أضربوا عن الثلاثة المطاعن وانتقلوا إلى ظنهم المجرّد عن البرهان الذى لا مستند له إلا مجرد العصبية والحسد ، واستبقاء ما هم فيه من الرياسة الدنيوية ، فقالوا: ﴿ **بل نظنكم كاذبين** ﴾ فيما تدّعونه ، ويجوز أن يكون هذا خطابا للأراذل وحدهم ؛ والأوّل أولى ، لأن الكلام مع نوح لا معهم إلا بطريق التبعية له .

ثم ذكر سبحانه ما أجاب به نوح عليهم ، فقال : ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى** ﴾ أى أخبرونى إن كنت على برهان من ربى فى النبوّة يدل على صحتها ويوجب عليكم قبولها مع كون ما جعلتموه قادحا ليس بقادح فى الحقيقة ، فإن المساواة فى صفة البشرية لا تمنع المفارقة فى صفة النبوّة ، واتباع الأراذل كما تزعمون ليس مما يمنع من النبوّة فإنهم مثلكم فى البشرية والعقل والفهم ، فاتباعهم لى حجة عليكم لا لكم ، ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة ﴿ **وآتانى رحمة من عنده** ﴾ هى النبوّة ، وقيل : الرحمة : المعجزة ، والبينة : النبوّة. قيل : ويجوز أن تكون الرحمة هى البينة نفسها، والأولى تفسير الرحمة بغير ما فسرت به

البينة، والإفراد فى : ﴿ **فعميت** ﴾ على إرادة كل واحدة منهما ، أو على إرادة البينة ، لأنها هى التى تظهر لمن تفكر وتخفى على من لم يتفكر ، ومعنى عميت : خفيت . وقيل : الرحمة هى على الخلق . وقيل : هى الهداية إلى معرفة البرهان . وقيل : الإيمان ، يقال : عميت عن كذا ، وعمى علىّ كذا : إذا لم أفهمه . قيل: وهو من باب القلب ، لأن البينة أوالرحمة لا تعمى ، وإنما يعمى عنها فهو كقولهم : أدخلت القلنسوة رأسى . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى وحفص :﴿ **فعميت** ﴾ بضم العين وتشديد الميم على البناء للمفعول ، أى فعماها اللّه عليكم ، وفى قراءة أبىّ : « فعماها عليكم » والاستفهام فى : ﴿**أنلزمكموها**﴾ للإنكار، أى لا يمكننى أن أضطركم إلى المعرفة بها، والحال أنكم ﴿ **لها كارهون** ﴾ ، والمعنى: أخبرونى إن كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة نبوّتى إلا أنها خافية عليكم أيمكننا أن نضطركم إلى العلم بها ، والحال أنكم لها كارهون غير متدبرين فيها ، فإن ذلك لا يقدر عليه إلا اللّه عزّ وجلّ . وحكى الكسائى والفراء إسكان الميم الأولى فى ﴿ **أنلزمكموها** ﴾ تخفيفا كما فى قول الشاعر :

فاليوم أشرب غير مستحقب (١) إثما من اللّه ولا واغل (٢)

فإن إسكان الباء فى أشرب للتخفيف . وقد قرأ أبو عمر كذلك .

قوله : ﴿ **ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على اللّه** ﴾ فيه التصريح منه عليه السلام بأنه لا يطلب على تبليغ الرسالة مالا حتى يكون بذلك محلا للتهمة ، ويكون لقول الكافرين مجال بأنه إنما ادّعى ما ادعى طلبا للدنيا ، والضمير فى عليه راجع إلى ما قاله لهم فيما قبل هذا . وقوله : ﴿ **وما أنا بطارد الذين آمنوا** ﴾ كالجواب عما يفهم من قولهم: ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا** ﴾ من التلميح منهم إلى إبعاد الأراذل عنه . وقيل : إنهم سألوه طردهم تصريحا لا تلميحا ، ثم علل ذلك بقوله :﴿ **إنهم ملاقوا ربهم** ﴾ أى لا أطردهم فإنهم ملاقون يوم القيامة ربهم فهو يجازيهم على إيمانهم لأنهم طلبوا ما عنده سبحانه ، وكأنه قال : هذا على وجه الإعظام لهم ، ويحتمل أنه قاله خوفا من مخاصمتهم له عند ربهم بسبب طرده لهم ؛ ثم بين لهم ما هم عليه فى هذه المطالب التى طلبوها منه والعلل التى اعتلوا بها عن إجابته فقال : ﴿ **ولكنى أراكم قوما تجهلون** ﴾ كل ماينبغى أن يعلم ، ومن ذلك استرذالهم للذين اتبعوه ، وسؤالهم له أن يطردهم . ثم أكد عدم جواز طردهم بقوله : ﴿ **ويا قوم من ينصرنى من اللّه إن طردتهم** ﴾ أى من يمنعنى من عذاب اللّه وانتقامه إن طردتهم ؟ فإن طردهم بسبب سبقهم إلى الإيمان ، والإجابة إلى الدعوة التى أرسل اللّه رسوله لأجلها ظلم عظيم ، لا يقع من أنبياء اللّه المؤيدين بالعصمة ، ولو وقع ذلك منهم فرضا وتقديرا لكان فيه

---

(١) احتقب الإثم واستحقبه : احتمله .

(٢) الواغل : الداخل على الشراب ولم يدع له .

من الظلم ما لا يكون لو فعله غيرهم من سائر الناس . وقوله :﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ معطوف على مقدّر ، كأنه قيل : أتستمرون على ماأنتم عليه من الجهل بما ذكر ، أفلا تذكرون من أحوالهم ما ينبغى تذكره ، وتتفكرون فيه حتى تعرفوا ما أنتم عليه من الخطأ ، وما هم عليه من الصواب .

قوله : ﴿ **ولا أقول لكم عندى خزائن اللّه** ﴾ بين لهم أنه كما لا يطلب منهم شيئا من أموالهم على تبليغ الرسالة،كذلك لايدّعى أن عنده خزائن اللّه حتى يستدلوا بعدمها على كذبه، كما قالوا :﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾ والمراد بخزائن اللّه:خزائن رزقه﴿ **ولا أعلم الغيب** ﴾ أى ولا أدّعى أنى أعلم بغيب اللّه، بل لم أقل لكم إلا أنى نذير مبين ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴿ **ولا أقول** ﴾ لكم ﴿ **إنى ملك** ﴾ حتى تقولوا ما نراك إلا بشراً مثلنا . وقد استدلّ بهذا من قال : إن الملائكة أفضل من الأنبياء ، والأدلة فى هذه المسألة مختلفة ، وليس لطالب الحق إلى تحقيقها حاجة ، فليست مما كلفنا اللّه بعلمه ﴿ **ولا أقول للذين تزدرى أعينكم** ﴾ أى تحتقر ، والازدراء مأخوذ من أزرى عليه : إذا عابه ، وزرى عليه : إذا احتقره ، وأنشد الفراء :

يباعده الصديق وتزدريه ... خليلته وينهره الصغير

والمعنى : إنى لا أقول لهؤلاء المتبعين لى المؤمنين باللّه الذين تعيبونهم وتحتقرونهم : ﴿**لن يؤتيهم اللّه خيرا**﴾ بل قد آتاهم الخير العظيم بالإيمان به واتباع نبيه ؛ فهو مجازيهم بالجزاء العظيم فى الآخرة ، ورافعهم فى الدنيا إلى أعلى محل ، ولا يضرّهم احتقاركم لهم شيئا ﴿**اللّه أعلم بما فى أنفسهم** ﴾ من الإيمان به والإخلاص له فمجازيهم على ذلك ، ليس لى ولا لكم من أمرهم شىء ﴿ **إنى إذا لمن الظالمين** ﴾ لهم إن فعلت ما تريدونه بهم ، أو من الظالمين لأنفسهم إن فعلت ذلك بهم ، ثم جاوبوه بغير ما تقدّم من كلامهم وكلامه ، عجزا عن القيام بالحجة وقصورا عن رتبة المناظرة وانقطاعا عن المباراة بقولهم : ﴿ **يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا** ﴾ أى خاصمتنا بأنواع الخصام ، ودفعتنا بكل حجة لها مدخل فى المقام ، ولم يبق لنا فى هذا الباب مجال ، فقد ضاقت علينا المسالك وانسدّت أبواب الحيل ﴿ **فأتنا بما تعدنا** ﴾ من العذاب الذى تخوّفنا منه وتخافه علينا ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾ فيما تقوله لنا . فأجاب بأن ذلك ليس إليه وإنما هو بمشيئة اللّه وإرادته ، و﴿ **قال إنما يأتيكم به اللّه إن شاء** ﴾ فإن قضت مشيئته وحكمته بتعجيله عجله لكم ، وإن قضت مشيئته وحكمته بتأخيره أخره ﴿ **وما أنتم بمعجزين** ﴾ بفائتين عما أراده اللّه بكم بهرب أو مدافعة .

﴿ **ولا ينفعكم نصحى** ﴾ الذى أبذله لكم وأستكثر منه قياما منى بحق النصيحة للّه بإبلاغ رسالته ، ولكم بإيضاح الحق ، وبيان بطلان ما أنتم عليه ﴿ **إن أردت أن أنصح لكم** ﴾ وجواب هذا الشرط محذوف ، والتقدير : إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى ، كما

يدل عليه ماقبله ، ﴿ **إن كان اللّه يريد أن يغويكم** ﴾ أى إن كان اللّه يريد إغواءكم فلا ينفعكم النصح منى ، فكان جواب هذا الشرط محذوفا كالأوّل ، وتقديره ماذكرنا ، وهذا التقدير إنما هو على مذهب من يمنع من تقدّم الجزاء على الشرط ، وأما على مذهب من يجيزه، فجزاء الشرط الأوّل : ﴿ **ولا ينفعكم نصحى** ﴾ ، وجزاء الشرط الثانى الجملة الشرطية الأولى وجزاؤها . قال ابن جرير : معنى ﴿ **يغويكم** ﴾ : يهلككم بعذابه ، وظاهر لغة العرب أن الإغواء : الإضلال ؛ فمعنى الآية : لا ينفعكم نصحى إن كان اللّه يريد أن يضلكم عن سبيل الرشاد ، ويخذلكم عن طريق الحق . وحكى عن طىّ : أصبح فلان غاويا ، أى مريضا ، وليس هذا المعنى هو المراد فى الآية . وقد ورد الإغواء بمعنى الإهلاك ، ومنه : ﴿ فسوف يلقون غيا ﴾ [مريم : ٥٩] وهو غير ما فى هذه الآية ﴿ **هو ربكم** ﴾ فإليه الإغواء وإليه الهداية ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ فيجازيكم بأعمالكم إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشرّ .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى** ﴾ قال : فيما ظهر لنا . وأخرج أبو الشيخ عن عطاء مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **إن كنت على بينة من ربى** ﴾ قال : قد عرفتها وعرفت بها أمره ، وأنه لا إله إلا هو ، ﴿ **وآتانى رحمة من عنده** ﴾ قال : الإسلام الهدى والإيمان والحكم والنبوّة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **أنلزمكموها** ﴾ قال : أما واللّه لو استطاع نبىّ اللّه لألزمها قومه ، ولكنه لم يستطع ذلك ولم يمكنه . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ؛ أنه كان يقرأ : «أنلزمكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون » . وأخرج ابن جرير عن أبى العالية قال فى قراءة أبىّ : « أنلزمكموها من شطر أنفسنا وأنتم لها كارهون » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبىّ بن كعب أنه قرأ : « أنلزمكموها من شطر قلوبنا » .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **وما أنا بطارد الذين آمنوا** ﴾ ، قال : قالوا له : يانوح ، إن أحببت أن نتبعك فاطردهم ، وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم فى الأرض سواء ، وفى قوله : ﴿ **إنهم ملاقو ربهم** ﴾ قال: فيسألهم عن أعمالهم ﴿ **ولا أقول لكم عندى خزائن اللّه** ﴾ التى لا يفنيها شىء ، فأكون إنما دعوتكم لتتبعونى عليها، لا أعطيكم بملكه لى عليها ﴿ **ولا أعلم الغيب** ﴾ لا أقول : اتبعونى على علمى بالغيب ﴿ **ولا أقول إنى ملك** ﴾ نزلت من السماء برسالة ، ما أنا إلا بشر مثلكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد ﴿ **ولا أقول للذين تزدرى أعينكم** ﴾ . قال : حقرتموهم . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **لن يؤتيهم اللّه خيرا** ﴾ قال : يعنى إيمانا : وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **فأتنا بما تعدنا** ﴾ قال : تكذيبا بالعذاب وأنه باطل .

﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ** (٣٥) **وَأُوحِيَ**

إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ أنكر سبحانه عليهم قولهم : إن ما أوحى إلى نوح مفترى، فقال : ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ ثم أمره أن يجيب بكلام متصف ، فقال : ﴿ **قل إن افتريته فعلىّ إجرامى** ﴾ بكسر الهمزة على قراءة الجمهور ، مصدر أجرم : أى فعل ما يوجب الإثم ، وجرم وأجرم بمعنى قاله النحاس ، والمعنى : فعلىّ إثمى أو جزاء كسبى . ومن قرأ بفتح الهمزة، قال:هو جمع جرم ذكره النحاس أيضا ﴿ **وأنا برىء مما تجرمون** ﴾ أى من إجرامكم بسبب ما تنسبونه إلىّ من الافتراء . قيل : وفى الكلام حذف والتقدير : لكن ما افتريته ، فالإجرام وعقابه ليس إلا عليكم وأنا برىء منه . وقد اختلف المفسرون فى هذه الآية ، فقيل : إنها حكاية عن نوح وما قاله لقومه . وقيل : هى حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبينا محمد ﷺ وكفار مكة . والأوّل أولى ، لأن الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام .

قوله : ﴿ **وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن** ﴾ : ﴿ **أنه لن يؤمن** ﴾ فى محل رفع على أنه نائب الفاعل الذى لم يسمّ . ويجوز أن يكون فى موضع نصب بتقدير الباء . أى بأنه ، وفى الكلام تأييس له من إيمانهم . وأنهم مستمرّون على كفرهم . مصممون عليه ، لا يؤمن أحد منهم إلا من قد سبق إيمانه ﴿ **فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** ﴾ البؤس : الحزن ، أى فلا تحزن ، والبائس : المستكين . فنهاه اللّه سبحانه عن أن يحزن حزن مستكين لأن الابتئاس حزن فى استكانة . ومنه قول الشاعر :

وكم من خليل أوحميم رُزِئته ... فلم أبتئس والرّزءُ فيه جَلِيلُ

ثم إن اللّه سبحانه لما أخبره أنهم لا يؤمنون ألبتة عرفه وجه إهلاكهم ، وألهمه الأمر الذى يكون به خلاصه وخلاص من آمن معه . فقال : ﴿ **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا** ﴾ أى اعمل السفينة متلبسا بأعيننا ، أى بمرأى منا . والمراد بحراستنا لك وحفظنا لك وعبر عن ذلك بالأعين لأنها آلة الرؤية ، والرؤية هى التى تكون بها الحراسة والحفظ فى الغالب ، وجمع الأعين للتعظيم لا للتكثير . وقيل : المعنى : ﴿ **بأعيننا** ﴾ أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيونا على حفظك . وقيل : ﴿**بأعيننا** ﴾ : بعلمنا . وقيل : بأمرنا . ومعنى بوحينا: بما أوحينا إليك من كيفية صنعتها ﴿ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ﴾ أى لا تطلب إمهالهم ، فقد حان وقت الانتقام منهم ، وجملة ﴿ إنهم مغرقون ﴾ للتعليل ، أى لا تطلب منا إمهالهم ، فإنه محكوم منا عليهم بالغرق ، وقد مضى به القضاء فلا سبيل إلى دفعه ولا تأخيره : وقيل : المعنى : ولا تخاطبنى فى تعجيل عقابهم ، فإنهم مغرقون فى الوقت المضروب لذلك ، لا يتأخر إغراقهم عنه . وقيل : المراد بالذين ظلموا: امرأته وابنه .

﴿ **ويصنع الفلك** ﴾ أى وطفق يصنع الفلك ، أو وأخذ يصنع الفلك . وقيل : هو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة ، وجملة : ﴿ **وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه**﴾ فى محل نصب على الحال ، أى استهزؤوا به لعمله السفينة . قال الأخفش والكسائى : يقال: سخرت به ومنه . وفى وجه سخريتهم منه قولان : أحدهما : أنهم كانوا يرونه يعمل السفينة. فيقولون : يانوح صرت بعد النبوّة نجارا . والثانى : أنهم لما شاهدوه يعمل السفينة ، وكانوا لا يعرفونها قبل ذلك ، قالوا : يانوح ، ماتصنع بها ؟ قال : أمشى بها على الماء فعجبوا من قوله ، وسخروا به . ثم أجاب عليهم بقوله: ﴿ **إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون**﴾ وهذا الكلام مستأنف على تقدير سؤال كأنه قيل : فماذا قال لهم ؟ والمعنى : إن تسخروا منا بسبب عملنا للسفينة اليوم فإنا نسخر منكم غداً عند الغرق . ومعنى السخرية هنا : الاستجهال ، أى إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلون ، واستجهاله لهم باعتبار إظهاره لهم ومشافهتهم . وإلا فهم عنده جهال قبل هذا وبعده ، والتشبيه فى قوله : ﴿ **كما تسخرون**﴾ لمجرد التحقق والوقوع ، أو التجدّد والتكرّر ، والمعنى : إنا نسخر منكم سخرية متحققة واقعة كما تسخرون منا كذلك ، أو متجدّدة متكرّرة كما تسخرون منا كذلك ، وقيل : معناه: نسخر منكم فى المستقبل سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق ، وفيه نظر فإن حالهم إذ ذاك لا تناسبه السخرية ، إذ هم فى شغل شاغل عنها .

ثم هدّدهم بقوله : ﴿ **فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه** ﴾ وهو عذاب الغرق فى الدنيا ﴿ **ويحلّ عليه عذاب مقيم** ﴾ وهو عذاب النار الدائم : ومعنى يحلّ : يجعل المؤجل حالا . مأخوذ من حلول الدّين المؤجل ، و« من » موصولة فى محل نصب ويجوز أن تكون استفهامية فى محل رفع ، أى آينا يأتيه عذاب يخزيه . وقيل : فى موضع رفع بالابتداء، و﴿**يأتيه** ﴾ الخبر ، و﴿ **يخزيه** ﴾ صفة لعذاب . قال الكسائى : إن ناسا من أهل الحجاز

يقولون :« سوف تعلمون » قال:ومن قال:« ستعلمون » أسقط الواو والفاء جميعا، وجوّز الكوفيون : « سف تعلمون » ومنعه البصريون ، والمراد بعذاب الخزى : العذاب الذى يخزى صاحبه ويحل عليه العار .

قوله : ﴿ **حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور** ﴾ «حتى» هى الابتدائية دخلت على الجملة الشرطية وجعلت غاية لقوله : ﴿ **واصنع الفلك بأعيننا** ﴾ . والتنور : اختلف فى تفسيرها على أقوال : الأوّل : أنها وجه الأرض ، والعرب تسمى وجه الأرض تنورًا . روى ذلك عن ابن عباس وعكرمة والزهرى وابن عيينة . الثانى : أنه تنور الخبز الذى يخبزونه فيه ، وبه قال مجاهد وعطية والحسن ، وروى عن ابن عباس أيضا . الثالث : أنه موضع اجتماع الماء فى السفينة ، روى عن الحسن . الرابع : أنه طلوع الفجر ، من قولهم تنوّر الفجر ، روى عن علىّ بن أبى طالب. الخامس : أنه مسجد الكوفة ، روى عن علىّ أيضا ومجاهد ؛ قال مجاهد : كان ناحية التنوّر بالكوفة . السادس : أنه أعالى الأرض والمواضع المرتفعة ، قاله قتادة . السابع : أنه العين التى بالجزيرة المسماة عين الوردة ، روى ذلك عن عكرمة . الثامن : أنه موضع بالهند ؛ قال ابن عباس : كان تنور آدم بالهند . قال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة ، لأن اللّه سبحانه قد أخبر بأن الماء قد جاء من السماء والأرض ، قال :﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا ﴾ [القمر : ١١ ، ١٢] فهذه الأقوال تجتمع فى أن ذلك كان علامة . هكذا قال ، وفيه نظر ، فإن القول الرابع ينافى هذا الجمع ، ولا يستقيم عليه التفسير بنبع الماء . إلا إذا كان المراد مجرد العلامة كما ذكره آخرا . وقد ذكر أهل اللغة أن الفور : الغليان ، والتنور : اسم عجمى عرّبته العرب . وقيل : معنى فار التنور : التمثيل بحضور العذاب كقولهم : حَمِى الوطيس: إذا اشتدّ الحرب ، ومنه قول الشاعر :

تركتم قِدْركم لا شىء فيها ... وقِدْرُ القوم حاميةٌ تَفورُ

يريد الحرب . قوله : ﴿ **قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين** ﴾ أى قلنا : يا نوح ، احمل فى السفينة من كل زوجين مما فى الأرض من الحيوانات اثنين ذكرا وأنثى . وقرأ حفص: ﴿ **من كل** ﴾ بتنوين كل ، أى من كل شىء زوجين ، والزوجان للاثنين اللذين لا يستغنى أحدهما عن الآخر ، ويطلق على كل واحد منهما زوج ، كما يقال للرجل زوج وللمرأة زوج، ويطلق الزوج على الاثنين إذا استعمل مقابلا للفرد ، ويطلق الزوج على الضرب والصنف . ومثله قوله تعالى : ﴿ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ [الحج : ٥] ومثله قول الأعشى :

وكل ضرب من الديباج يلبسه ... أبو حذافة مخبوّ بذاك معا

أراد كل صنف من الديباج ﴿ **وأهلك** ﴾ عطف على ﴿ **زوجين** ﴾ ، أو على اثنين على قراءة حفص ، وعلى محل كل زوجين ، فإنه فى محلّ نصب بـ﴿ **احمل** ﴾ ، أو على

﴿اثنين﴾ على قراءة الجمهور ، والمراد : امرأته وبنوه ونساؤهم ﴿ **إلا من سبق عليه القول** ﴾ أى من تقدّم الحكم عليه بأنه من المغرقين فى قوله : ﴿ **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾ على الاختلاف السابق فيهم ، فمن جعلهم جميع الكفار من أهله وغيرهم كان هذا الاستثناء من جملة : ﴿ **احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك** ﴾ ومن قال : المراد بهم : ولده كنعان وامرأته واعلة أمّ كنعان جعل الاستثناء من أهلك، ويكون متصلا إن أريد بالأهل ماهو أعمّ من المسلم والكافرمنهم ، ومنقطعا إن أريد بالأهل المسلمون منهم فقط . قوله : ﴿ **ومن آمن** ﴾ معطوف على ﴿ **أهلك** ﴾ أى واحمل فى السفينة من آمن من قومك ، وأفرد الآهل منهم لمزيد العناية بهم ، أو للاستثناء منهم على القول الآخر . ثم وصف اللّه سبحانه قلة المؤمنين مع نوح بالنسبة إلى من كفر به فقال : ﴿ **وما آمن معه إلا قليل** ﴾ قيل : هم ثمانون إنسانا : منهم ثلاثة من بنيه ، وهو سام ، وحام ، ويافث ، وزوجاتهم ، ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية يقال لها قرية الثمانين ، وهى موجودة بناحية الموصل ، وقيل : كانوا عشرة . وقيل : سبعة . وقيل : كانوا اثنين وسبعين . وقيل غير ذلك .

قوله : ﴿ **وقال اركبوا فيها** ﴾ القائل نوح . وقيل : اللّه سبحانه . والأوّل أولى لقوله : ﴿ **إن ربى لغفور رحيم** ﴾ والركوب : العلوّ على ظهر الشىء حقيقة نحو ركب الدابة ، أو مجازا نحو ركبه الدين ، وفى الكلام حذف ، أى اركبوا الماء فى السفينة فلا يرد أن ركب يتعدّى بنفسه . وقيل : إن الفائدة فى زيادة « فى » أنه أمرهم بأن يكونوا فى جوف السفينة لا على ظهرها . وقيل : إنها زيدت لرعاية جانب المحلية فى السفينة كما فى قوله : ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ، وقوله : ﴿ حتى إذا ركبا فى السفينة ﴾ [الكهف : ٧١] قيل : ولعلّ نوحا قال هذه المقالة بعد إدخال ما أمر بحمله من الأزواج ، كأنه قيل : فحمل الأزواج وأدخلها فى الفلك ، وقال للمؤمنين ، ويمكن أن يقال : إنه أمر بالركوب كل من أمر بحمله من الأزواج والأهل والمؤمنين ، ولا يمتنع أن يفهم خطابه من لا يعقل من الحيوانات ، أو يكون هذا على طريقة التغليب . قوله : ﴿ **بسم اللّه** ﴾ متعلق بـ﴿ **اركبوا** ﴾ ، أو حال من فاعله ، أى مسمين اللّه ، أو قائلين : ﴿ **بسم اللّه مجراها ومرساها** ﴾ قرأ أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من شذّ منهم على أنهما اسما زمان ، وهما فى موضع نصب على الظرفية ، أى وقت مجراها ومرساها ، ويجوز أن يكونا مصدرين ، أى وقت إجرائها وإرسائها. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى وحفص :﴿ **مجراها** ﴾ بفتح الميم ، و ﴿ **مرساها** ﴾ بضمها ، وقرأ يحيى بن وثاب بفتحها فيهما . وقرأ مجاهد وسليمان بن جندب وعاصم الجحدرى وأبو رجاء العطاردى :﴿ **مجريها ومرسيها** ﴾ على أنهما وصفان للّه ، ويجوز أن يكونا فى موضع رفع بإضمار مبتدأ، أى هو مجريها ومرسيها ﴿ **إنّ ربى لغفور** ﴾ للذنوب ﴿**رحيم** ﴾ بعباده ، ومن رحمته إنجاء هذه الطائفة تفضلا منه لبقاء هذا الجنس الحيوانى، وعدم استئصاله بالغرق .

قوله : ﴿ **وهى تجرى بهم فى موج كالجبال** ﴾ هذه الجملة متصلة بجملة محذوفة دلّ عليها الأمر بالركوب، والتقدير: فركبوا مسمين وهى تجرى بهم ، والموج جمع موجة ، وهى ما ارتفع عن جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح ، وشبهها بالجبال المرتفعة على الأرض . قوله : ﴿ **ونادى نوح ابنه** ﴾ هو كنعان ، قيل : وكان كافرًا ، واستبعد كون نوح ينادى من كان كافرا مع قوله :﴿ ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾[نوح : ٢٦] وأجيب بأنه كان منافقا فظن نوح أنه مؤمن . وقيل : حملته شفقة الأبوّة على ذلك . وقيل : إنه كان ابن امرأته ولم يكن بابنه ، ويؤيده ما روى أن عليا قرأ:«ونادى نوح ابنها » . وقيل : إنه كان لغير رشدة ، وولد على فراش نوح . وردّ بأن قوله : ﴿ **ونادى نوح ابنه** ﴾ ، وقوله : ﴿ **إن ابنى من أهلى** ﴾ يدفع ذلك على ما فيه من عدم صيانة منصب النبوّة ﴿ وكان فى معزل ﴾ أى فى مكان عزل فيه نفسه عن قومه وقرابته بحيث لم يبلغه قول نوح : اركبوا فيها : وقيل : فى معزل من دين أبيه ، وقيل : من السفينة. قيل : وكان هذا النداء قبل أن يستيقن الناس الغرق، بل كان فى أوّل فور التنور .

قوله : ﴿ **يا بنىّ اركب معنا** ﴾ قرأ عاصم بفتح الياء ، والباقون بكسرها ، فأما الكسر فلجعله بدلا من ياء الإضافة ، لأن الأصل يا بنىّ ، وأما الفتح فلقلب ياء الإضافة ألفا لخفة الألف ، ثم حذف الألف وبقيت الفتحة لتدلّ عليه . قال النحاس: وقراءة عاصم مشكلة . وقال أبو حاتم : أصله يا بنياه ثم تحذف ، وقد جعل الزجاج للفتح وجهين ، وللكسر وجهين. أما الفتح بالوجه الأوّل ما ذكرناه ، والوجه الثانى : أن تحذف الألف لالتقاء الساكنين، وأما الكسر فالوجه الأوّل ما ذكرناه ، والثانى : أن تحذف لالتقاء الساكنين كذا حكى عنه النحاس . وقرأ أبو عمر والكسائى وحفص : ﴿ **اركب معنا** ﴾ بإدغام الباء فى الميم لتقاربهما فى المخرج . وقرأ الباقون بعدم الإدغام ﴿ **ولا تكن مع الكافرين** ﴾ نهاه عن الكون مع الكافرين ، أى خارج السفينة ، ويمكن أن يراد بالكون معهم الكون على دينهم .

ثم حكى اللّه سبحانه ما أجاب به ابن نوح على أبيه فقال : ﴿ **قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء** ﴾ أى يمنعنى بارتفاعه من وصول الماء إلى ، فأجاب عنه نوح بقوله :﴿ **لا عاصم اليوم من أمر الله** ﴾ أى لا مانع فإنه يوم قد حق فيه العذاب وجف القلم بما هو كائن فيه . نفى جنس العاصم فيندرج تحته العاصم من الغرق فى ذلك اليوم اندراجا أوليا ، وعبر عن الماء أو عن الغرق بأمر الله سبحانه تفخيما لشأنه وتهويلا لأمره . والاستثناء قال الزجاج: هو منقطع ، أى لكن من رحمه الله فهو يعصمه ، فيكون ﴿ **من رحم** ﴾ فى موضع نصب ، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا على أن يكون عاصم بمعنى معصوم ، أى لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله ، مثل ﴿ ماء دافق ﴾[الطارق : ٦] ، ﴿ عيشة راضية ﴾

[الحاقة : ٢١] ومنه قول الشاعر :

دع المكارم لا تنهض لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

أى المطعم المكسو، واختار هذا الوجه ابن جرير . وقيل : العاصم بمعنى ذى العصمة ، كلابن وتامر ، والتقدير : لا عاصم قط إلا مكان من رحم الله وهو السفينة ، وحينئذ فلا يرد ما يقال : إن معنى من رحم : من رحمه الله . ومن رحمه الله هو معصوم ، فكيف يصح استثناؤه عن العاصم ؟ لأن فى كل وجه من هذه الوجوه دفعا للإشكال . وقرئ : « إلا من رحم » على البناء للمفعول ﴿ **وحال بينهما الموج** ﴾ أى حال بين نوح وابنه فتعذر خلاصه من الغرق . وقيل : بين ابن نوح وبين الجبل ، والأول أولى ، لأن تفرع ﴿ **فكان من المغرقين** ﴾ عليه يدل على الأول لا على الثانى ، لأن الجبل ليس بعاصم .

قوله : ﴿ **وقيل يا أرض ابلعى ماءك** ﴾ يقال : بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع ، وبلع يبلع مثل حمد يحمد لغتان حكاهما الكسائى والفراء . والبلع : الشرب ، ومنه البالوعة ، وهى الموضع الذى يشرب الماء ، والازدراد ، يقال : بلع ما فى فمه من الطعام : إذا ازدرده ، واستعير البلع الذى هو من فعل الحيوان للنشف دلالة على أن ذلك ليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدريج ﴿ **ويا سماء أقلعى** ﴾ الإقلاع : الإمساك، يقال :أقلع المطر : إذا انقطع . والمعنى : أمر السماء بإمساك الماء عن الإرسال ، وقدم نداء الأرض على السماء لكون ابتداء الطوفان منها ﴿ **وغيض الماء** ﴾ أى نقص ، يقال : غاض الماء وغضته أنا ﴿ **وقضى الأمر** ﴾ أى أحكم وفرغ منه ، يعنى أهلك الله قوم نوح على تمام وإحكام ﴿ **واستوت على الجودى** ﴾ أى استقرت السفينة على الجبل المعروف بالجودى ، وهو جبل بقرب الموصل . وقيل : إن الجودى : اسم لكل جبل ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل :

سبحانه ثم سبحانا نعوذ به وقبلنا سبح الجودى والجمد

ويقال : إنه من جبال الجنة فلذا استوت عليه ﴿ وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ القائل هو الله سبحانه ليناسب صدر الآية. وقيل : هو نوح وأصحابه . والمعنى : وقيل هلاكا للقوم الظالمين ، وهو من الكلمات التى تختص بدعاء السوء ووصفهم بالظلم للإشعار بأنه علة الهلاك ، وللإيماء إلى قوله : ﴿ **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا** ﴾ وقد أطبق علماء البلاغة على أن هذه الآية الشريفة بالغة من الفصاحة والبلاغة إلى محل يتقاصر عنه الوصف ، وتضعف عن الإتيان بما يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة ، الثابتين الأقدام فى علم البيان ، الراسخين فى علم اللغة ، المطلعين على ما هو مدون من خطب مصاقع خطباء العرب وأشعار بواقع شعرائهم ، المرتاضين بدقائق علوم العربية وأسرارها . وقد تعرض لبيان بعض ما اشتملت عليه من ذلك جماعة منهم فأطالوا وأطابوا ، رحمنا الله وإياهم برحمته الواسعة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **فعلى إجرامى** ﴾ قال : عملى ﴿ **وأنا برىء مما تجرمون** ﴾ أى مما تعملون . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿**وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن** ﴾ وذلك حين دعا عليهم نوح قال : ﴿ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ [نوح : ٢٦] . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن المنذر وأبو الشيخ عن الحسن قال : إن نوحا لم يدع على قومه حتى نزلت الآية هذه ، فانقطع عند ذلك رجاؤه منهم فدعا عليهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فلا تبتئس**﴾ قال : فلا تحزن .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عنه فى قوله : ﴿ **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا** ﴾ قال : بعين الله ووحيه . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : لم يعلم نوح كيف يصنع الفلك ، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « كان نوح مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم ، حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ثم جعل يعملها سفينة ويمرون فيسألونه فيقول : أعملها سفينة فيسخرون منه ، ويقولون : يعمل سفينة فى البر ، وكيف تجرى ؟ قال : سوف تعلمون ، فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء فى السكك خشيت أم الصبى عليه ، وكانت تحبه حبا شديدا ، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبته رفعته بين يديها حتى ذهب بها الماء ، فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبى » (١) وقد ضعفه الذهبى فى مستدركه على مستدرك الحاكم . وقد روى فى صفة السفينة وقدرها أحاديث وآثار ليس فى ذكرها هنا كثير فائدة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **من يأتيه عذاب يخزيه** ﴾ قال : هو الغرق ﴿ **ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾ قال : هو الخلود فى النار . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه عنه قال : كان بين دعوة نوح وبين هلاك قومه ثلثمائة سنة ، وكان فار التنور بالهند ، وطافت سفينة نوح بالبيت أسبوعا (٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : التنور: العين التى بالجزيرة عين الوردة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن على بن أبى طالب قال : فار التنور من مسجد الكوفة من قبل أبواب كندة . وقد روى عنه نحو هذا من طرق . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : التنور : وجه الأرض . قيل له : إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك . والعرب تسمى وجه الأرض تنور الأرض .

---

(١) ابن جرير ١٢/٢١، ٢٢ ، وصححه الحاكم ٢/٣٤٢ ، ٥٤٧ وقال الذهبى : « صحيح ، وإسناده مظلم ، وموسى بن يعقوب ليس بذاك » وابن كثير ٣/٥٥٥ وقال : « حديث غريب من هذا الوجه » .
(٢) صححه الحاكم ٢/ ٣٤٣ وقال الذهبى : « النفر ضعفوه » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن على : ﴿ **وفار التنور** ﴾ قال : طلع الفجر ، قيل له : إذا طلع الفجر فاركب أنت وأصحابك . وقد روى فى تفسير التنور غير هذا ، وقد قدمنا الإشارة إلى ذلك . وروى فى صفة القصة وما حمله نوح فى السفينة ، وكيف كان الغرق ، وكم بقيت السفينة على ظهر الماء روايات كثيرة لا مدخل لها فى تفسير كلام الله سبحانه .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **بسم الله مجراها ومرساها** ﴾ قال : حين يركبون ويجرون ويرسون . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : كان إذا أراد أن ترسى قال: بسم الله ، فأرست . وإذا أراد أن تجرى قال : بسم الله ، فجرت . وأخرج أبو يعلى والطبرانى وابن السنى وابن عدى وأبو الشيخ وابن مردويه عن الحسن بن على قال : قال رسول الله ﷺ : « أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا : بسم الله الملك الرحمن، بسم الله مجراها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم ، ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ إلى آخر الآية [الزمر : ٦٧] »(١) . وأخرجه ابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ﷺ(٢) . وأخرجه أيضا أبو الشيخ عنه مرفوعا من طريق أخرى . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : كان اسم ابن نوح الذى غرق كنعان . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : هو ابنه غير أنه خالفه فى النية والعمل .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله : ﴿ **لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم** ﴾ قال : لا ناج إلا أهل السفينة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن القاسم ابن أبى برة فى قوله : ﴿ **وحال بينهما الموج** ﴾ قال : بين ابن نوح والجبل . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ **يا أرض ابلعى** ﴾ قال : هو بالحبشية. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه فى ﴿ **ابلعى** ﴾ قال : بالحبشية ، أى ازدرديه . وأخرج أبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : معناه : اشربى ، بلغة الهند . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس مثله . أقول : وثبوت لفظ البلع وما يشتق منه فى لغة العرب ظاهر مكشوف ، فما لنا وللحبشة والهند .

﴿ **وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ**

(١) أبو يعلى ١٢/ ١٥٢ وإسناده تالف ، وابن عدى فى الكامل ٧/ ١٩٨ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٣٥ : «رواه أبو يعلى عن شيخه جبارة بن مغلس وهو ضعيف » وأورده ابن حجر فى المطالب العالية ٣/ ٢٣٧ وفيه ضعف .

(٢) الطبرانى (١٢٦٦١) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٣٥ : «فيه نهشل بن سعيد، وهو متروك».

عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾ .

معنى : ﴿ **ونادى نوح ربه** ﴾ دعاه ، والمراد : أراد دعاءه ، بدليل الفاء في : ﴿ **فقال رب إن ابني من أهلي** ﴾ وعطف الشيء على نفسه غير سائغ ، فلابد من التقدير المذكور ، ومعنى قوله : ﴿ **إن ابني من أهلي** ﴾ أنه من الأهل الذين وعدتني بتنجيتهم بقولك : وأهلك . فإن قيل : كيف طلب نوح عليه السلام إنجاز ما وعده الله بقوله :﴿ **وأهلك** ﴾ وهو المستثنى منه ، وترك ما يفيده الاستثناء ، وهو : ﴿ **إلا من سبق عليه القول** ﴾ ؟ فيجاب بأنه لم يعلم إذ ذاك أنه ممن سبق عليه القول، فإنه كان يظنه من المؤمنين ﴿ **وإن وعدك الحق** ﴾ الذي لا خلف فيه ، وهذا منه ﴿ **وأنت أحكم الحاكمين** ﴾ أي أتقن المتقنين لما يكون به الحكم، فلا يتطرق إلى حكمك نقض . وقيل : أراد بـ ﴿ **أحكم الحاكمين** ﴾ : أعلمهم وأعدلهم ، أي أنت أكثر علما وعدلا من ذوي الحكم . وقيل : إن الحاكم بمعنى : ذي الحكمة كدارع .

ثم أجاب الله سبحانه عن نوح ببيان أن ابنه غير داخل في عموم الأهل ، وأنه خارج بقيد الاستثناء فقال : ﴿ **يا نوح إنه ليس من أهلك** ﴾ الذين آمنوا بك وتابعوك وإن كان من أهلك باعتبار القرابة ؛ ثم صرح بالعلة الموجبة لخروجه من عموم الأهل المبينة له بأن المراد بالقرابة: قرابة الدين لا قرابة النسب وحده فقال : ﴿ **إنه عمل غير صالح** ﴾ قرأ الجمهور: ﴿**عمل** ﴾ على لفظ المصدر. وقرأ ابن عباس وعكرمة والكسائي ويعقوب :﴿ **عمل** ﴾ على لفظ الفعل ؛ ومعنى القراءة الأولى المبالغة في ذمه كأنه جعل نفس العمل ، وأصله ذو عمل غير صالح ثم حذف المضاف وجعل نفس العمل ، كذا قال الزجاج وغيره . ومعنى القراءة الثانية ظاهر ، أي إنه عمل عملا غير صالح ، وهو كفره وتركه لمتابعة أبيه ؛ ثم نهاه عن مثل هذا السؤال ، فقال : ﴿ **فلا تسألن ما ليس لك به علم** ﴾ لما بين له بطلان ما اعتقده من كونه من أهله فرع على ذلك النهي عن السؤال ، وهو وإن كان نهيا عاما بحيث يشمل كل سؤال لا يعلم صاحبه أن حصول مطلوبه منه صواب ، فهو يدخل تحته سؤاله هذا دخولا أوليا، وفيه عدم جواز الدعاء بما لا يعلم الإنسان مطابقته للشرع . وسمي دعاءه سؤالا ؛ لتضمنه معنى السؤال . ﴿ **إني أعظك أن تكون من الجاهلين** ﴾ أي أحذرك أن تكون من الجاهلين كقوله : ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ﴾ [النور : ١٧] وقيل : المعنى :

obeikandl.com

أرفعك أن تكون من الجاهلين . قال ابن العربى : وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ويعليه بها إلى مقام العلماء العاملين .

ثم لما علم نوح بأن سؤاله لم يطابق الواقع . وأن دعاءه ناشئ عن وهم كان يتوهمه بادر إلى الاعتراف بالخطأ وطلب المغفرة والرحمة . فقال : ﴿ **رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم** ﴾ أى أعوذ بك أن أطلب منك ما لا علم لى بصحته وجوازه . ﴿ **وإلا تغفر لى**﴾ ذنب ما دعوت به على غير علم سنى ﴿ **وترحمنى** ﴾ برحمتك التى وسعت كل شىء فتقبل توبتى ﴿ **أكن من الخاسرين** ﴾ فى أعمالى فلا أربح فيها . القائل هو الله . أو الملائكة ﴿ **قيل يا نوح اهبط** ﴾ أى انزل من السفينة إلى الأرض ، أو من الجبل إلى المنخفض من الأرض فقد بلعت الأرض ماءها وجفت ﴿ **بسلام منا** ﴾ أى بسلامة وأمن . وقيل : بتحية ﴿ **وبركات** ﴾ أى نعم ثابتة . مشتق من بروك الجمل وهو ثبوته . ومنه البركة لثبوت الماء فيها. وفى هذا الخطاب له دليل على قبول توبته ومغفرة زلته ﴿ **وعلى أمم ممن معك** ﴾ أى ناشئة ممن معك ، وهم المتشعبون من ذرية من كان معه فى السفينة . وقيل : أراد من فى السفينة ، فإنهم أمم مختلفة ، وأنواع من الحيوانات متباينة ؛ قيل : أراد الله سبحانه بهؤلاء الأمم الذين كانوا معه من صار مؤمنا من ذريتهم . وأراد بقوله : ﴿ **وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾ من صار كافرا من ذريتهم إلى يوم القيامة . وارتفاع أمم فى قوله : ﴿ **وأمم سنمتعهم** ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف، أى ومنهم أمم . وقيل : على تقدير : ويكون أمم . وقال الأخفش : هو كما تقول : كلمت زيدا وعمرو جالس . وأجاز الفراء فى غير القراءة « وأمما سنمتعهم » أى ونمتع أمما ، ومعنى الآية : وأمم سنمتعهم فى الدنيا بما فيها من المتاع ، ونعطيهم منها ما يعيشون به ، ثم يمسهم منا فى الآخرة عذاب أليم . وقيل : يمسهم إما فى الدنيا أو فى الآخرة.

والإشارة بقوله : ﴿ **تلك** ﴾ إلى قصة نوح ، وهى مبتدأ والجمل بعده أخبار ﴿ **من أنباء الغيب** ﴾ من جنس أنباء الغيب . والأنباء جمع نبأ وهو الخبر ، أى من أخبار الغيب التى مرت بك فى هذه السورة . والضمير فى ﴿ **نوحيها إليك** ﴾ راجع إلى القصة . والمجىء بالمضارع لاستحضار الصورة ﴿ **ما كنت** ﴾ يا محمد ﴿ **تعلمها أنت ولا** ﴾ يعلمها ﴿**قومك**﴾ بل هى مجهولة عندكم من قبل الوحى ، أو من قبل هذا الوقت ﴿ **فاصبر** ﴾ على ما تلاقيه من كفار زمانك . والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها ﴿ **إن العاقبة** ﴾ المحمودة فى الدنيا والآخرة ﴿ **للمتقين** ﴾ لله المؤمنين بما جاءت به رسله . وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ وتبشير له بأن الظفر للمتقين فى عاقبة الأمر ، ولا اعتبار بمباديه .

وقد أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : نادى نوح ربه فقال : رب إن ابنى من أهلى ، وإنك قد وعدتنى أن تنجى لى أهلى ، وإن ابنى من أهلى . وأخرج عبد

الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن ابن عباس قال : ما بغت امرأة نبي قط . وقوله : ﴿ **إنه ليس من أهلك** ﴾ يقول : ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه قال : إن نساء الأنبياء لا يزنين . وكان يقرؤها : «**إنه عَمِلَ غَيْرَ صالح** » يقول : مسألتك إياي يا نوح عمل غير صالح لا أرضاه لك . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله : ﴿ **فلا تسألن ما ليس لك به علم** ﴾ قال : بين الله لنوح أنه ليس بأبيه .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد في قوله : ﴿ **يا نوح اهبط بسلام منا** ﴾ قال : أهبطوا والله عنهم راض . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال : دخل في ذلك السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، ودخل في ذلك العذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة . وأخرج ابن جرير عن الضحاك ﴿ **وعلى أمم ممن معك** ﴾ يعني : ممن لم يولد ، أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعادة ﴿ **وأمم سنمتعهم** ﴾ يعني متاع الحياة الدنيا ﴿ **ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾ لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة . وأخرج أبو الشيخ قال : ثم رجع إلى محمد ﷺ فقال : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك** ﴾ يعني العرب ﴿ **من قبل هذا** ﴾ القرآن .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِن أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإلى عاد أخاهم هودا** ﴾ معطوف على ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا** ﴾ أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم : أى واحدا منهم . وهودا عطف بيان ، وقوم عاد كانوا عبدة أوثان وقد تقدم مثل هذا فى الأعراف . وقيل : هم عاد الأولى وعاد الأخرى. فهؤلاء هم عاد الأولى ، وعاد الأخرى هم شداد ولقمان وقومهما المذكورون فى قوله : ﴿ إرم ذات العماد ﴾ [الفجر: ٧] . وأصل عاد ، اسم رجل ثم صار اسما للقبيلة كتميم وبكر ونحوهما ﴿ **ما لكم من إله غيره** ﴾ قرئ : «غيره» بالجر على اللفظ . وبالرفع على محل من إله . وقرئ بالنصب على الاستثناء ﴿ **إن أنتم إلا مفترون** ﴾ أى ما أنتم باتخاذ إله غير الله إلا كاذبون على الله عز وجل . ثم خاطبهم فقال : ﴿ **ياقوم لا أسألكم عليه أجرا** ﴾ أى لا أطلب منكم أجرا على ما أبلغه إليكم وأنصحكم به من الإرشاد إلى عبادة الله وحده وأنه لا إله لكم سواه . فالضمير راجع إلى مضمون هذا الكلام. وقد تقدم معنى هذا فى قصة نوح ﴿ **إن أجرى إلا على الذى فطرنى** ﴾ أى ما أجرى الذى أطلب إلا من الذى فطرنى ، أى خلقنى فهو الذى يثيبنى على ذلك ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أن أجر الناصحين إنما هو من رب العالمين . قيل : إنما قال فيما تقدم فى قصة نوح: مالا ، وهنا قال : أجرا ؛ لذكر الخزائن بعده فى قصة نوح ، ولفظ المال بها أليق ، ثم أرشدهم إلى الاستغفار والتوبة . والمعنى : اطلبوا مغفرته لما سلف من ذنوبكم ثم توسلوا إليه بالتوبة . وقد تقدم زيادة بيان لمثل هذا فى قصة نوح ، ثم رغبهم فى الإيمان بالخير العاجل ، فقال : ﴿ **يرسل السماء** ﴾ أى المطر ﴿ **عليكم مدرارا** ﴾ أى كثير الدرور ، وهو منصوب على الحال ، درت السماء تدر وتدر فهى مدرار ، وكان قوم هود أهل بساتين وزرع وعمارة ، وكانت مساكنهم الرمال التى بين الشام واليمن ﴿ **ويزدكم قوة إلى قوتكم** ﴾ معطوف على يرسل ، أى شدة مضافة إلى شدتكم ، أو خصبا إلى خصبكم . أو عزا إلى عزكم . قال الزجاج : المعنى يزدكم قوة فى النعم ﴿ **ولا تتولوا مجرمين** ﴾ أى لا تعرضوا عما أدعوكم إليه وتقيموا على الكفر مصرين عليه ، والإجرام : الآثام كما تقدم .

ثم أجابه قومه بما يدل على فرط جهالتهم ، وعظيم غباوتهم ، فقالوا : ﴿ **ياهود ما جئتنا ببينة** ﴾ أى بحجة واضحة نعمل عليها ، ونؤمن لك بها غير معترفين بما جاءهم به من حجج الله وبراهينه عنادا وبعدًا عن الحق ﴿ **وما نحن بتاركى آلهتنا** ﴾ التى نعبدها من دون الله . ومعنى ﴿ **عن قولك** ﴾ : صادرين عن قولك ، فالظرف فى محل نصب على الحال ﴿**وما نحن لك بمؤمنين** ﴾ أى بمصدقين فى شىء مما جئت به ﴿ **إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** ﴾ أى ما نقول إلا أنه أصابك بعض آلهتنا التى تعيبها وتسفه رأينا فى عبادتها بسوء بجنون ، حتى نشأ عن جنونك ما تقوله لنا وتكرره علينا من التنفير عنها ، يقال : عراه الأمر واعتراه : إذا ألم به ، فأجابهم بما يدل على عدم مبالاته بهم وعلى وثوقه بربه وتوكله عليه ، وأنهم لا يقدرون على شىء مما يريده الكفار به ، بل الله سبحانه هو الضار النافع فقال : ﴿**إنى**

أشهد الله واشهدوا ﴾ أنتم ﴿ **أنى برىء مما تشركون** ﴾ به ﴿ **من دونه** ﴾ أى من إشراككم من دون الله من غير أن ينزل به سلطانا ﴿ **فكيدونى جميعا** ﴾ أنتم وآلهتكم إن كانت كما تزعمون من أنها تقدر على الإضرار بى وأنها اعترتنى بسوء ﴿ **ثم لا تنظرون** ﴾ أى لا تمهلونى، بل عاجلونى واصنعوا ما بدا لكم ؛ وفى هذا من إظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم التى يعبدونها ما يصك مسامعهم ، ويوضح عجزهم وعدم قدرتهم على شىء .

﴿ **إنى توكلت على الله ربى وربكم** ﴾ فهو يعصمنى من كيدكم ، وإن بلغتم فى تطلب وجوه الإضرار بى كل مبلغ، فمن توكل على الله كفاه . ثم لما بين لهم توكله على الله وثقته بحفظه وكلاءته ، وصفه بما يوجب التوكل عليه والتفويض إليه من اشتمال ربوبيته عليه وعليهم ، وأنه مالك للجميع ، وأن ناصية كل دابة من دواب الأرض بيده ، وفى قبضته وتحت قهره . وهو تمثيل لغاية التسخير ونهاية التذليل . وكانوا إذا أسروا الأسير وأرادوا إطلاقه، والمن عليه جزوا ناصيته فجعلوا ذلك علامة لقهره . قال الفراء :معنى آخذ بناصيتها: مالكها والقادر عليها ، وقال القتيبى : قاهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته . والناصية: قصاص الشعر من مقدم الرأس ؛ ثم علل ما تقدم بقوله : ﴿ **إن ربى على صراط مستقيم** ﴾ أى هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطكم على . ﴿ **فإن تولوا** ﴾ أى تتولوا فحذفت إحدى التاءين ، والمعنى : فإن تستمروا على الإعراض عن الإجابة والتصميم على ما أنتم عليه من الكفر ﴿ **فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم** ﴾ ليس على إلا ذلك ، وقد لزمتكم الحجة ﴿**ويستخلف ربى قوما غيركم** ﴾ جملة مستأنفة لتقرير الوعيد بالهلاك ، أى يستخلف فى دياركم وأموالكم قوما آخرين ، ويجوز أن يكون عطفا على ﴿ **فقد أبلغتكم** ﴾ وروى حفص عن عاصم أنه قرأ : ﴿ **ويستخلف** ﴾ بالجزم حملا على موضع فقد أبلغتكم ﴿ **ولا تضرونه شيئا** ﴾ أى بتوليكم ، ولا تقدرون على كثير من الضرر ولا حقير ﴿ **إن ربى على كل شىء حفيظ** ﴾ أى رقيب مهيمن عليه يحفظه من كل شىء . قيل : و« على » بمعنى اللام ، فيكون المعنى : لكل شىء حفيظ فهو يحفظنى من أن تنالونى بسوء .

﴿ **ولما جاء أمرنا** ﴾ أى عذابنا الذى هو إهلاك عاد ﴿ **نجينا هودا والذين آمنوا معه** ﴾ من قومه ﴿ **برحمة** منا ﴾ أى برحمة عظيمة كائنة منا لأنه لا ينجو أحد إلا برحمة الله . وقيل : هى الإيمان ﴿ **من عذاب غليظ** ﴾ أى شديد ، قيل : وهو السموم التى كانت تدخل أنوفهم . ﴿ **وتلك عاد** ﴾ مبتدأ وخبر ، وأنث الإشارة اعتبارا بالقبيلة . قال الكسائى : إن من العرب من لا يصرف عاد ويجعله اسما للقبيلة ﴿ **جحدوا بآيات ربهم** ﴾ أى كفروا بها وكذبوها وأنكروا المعجزات ﴿**وعصوا رسله** ﴾ أى هودا وحده ؛ لأنه لم يكن فى عصره رسول سواه، وإنما جمع هنا ؛ لأن من كذب رسولا فقد كذب جميع الرسل . وقيل : إنهم عصوا هودا ومن كان قبله من الرسل، أو كانوا بحيث لو بعث الله إليهم رسلا متعددين لكذبوهم ﴿**واتبعوا أمر كل جبار عنيد** ﴾ الجبار: المتكبر ، والعنيد : الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا

يذعن له . قال أبو عبيدة : العنيد العنود والعاند والمعاند . وهو المعارض بالخلاف منه ، ومنه قيل للعرق الذى يتفجر بالدم : عاند . قال الراجز :

إنى كبير لا أطيق العندا

﴿ **وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة** ﴾ أى ألحقوها ، وهى الإبعاد من الرحمة والطرد من الخير ، والمعنى : أنها لازمة لهم لا تفارقهم ما داموا فى الدنيا وأتبعوها ﴿ **يوم القيامة** ﴾ فلعنوا هنالك كما لعنوا فى الدنيا ﴿ **ألا إن عادا كفروا ربهم** ﴾ أى بربهم . وقال الفراء : كفروا نعمة ربهم ، يقال : كفرته وكفرت به ، مثل : شكرته وشكرت له ﴿ **ألا بعدا لعاد قوم هود** ﴾ أى لا زالوا مبعدين من رحمة الله ، والبعد : الهلاك ، والبعد : التباعد من الخير ، يقال : بعد يبعد بعدا : إذا تأخر وتباعد ، وبعد يبعد بعدا : إذا هلك ، ومنه قول الشاعر :

لا يبعدن قومى الذين هم ... سم العداة وآفة الجزر

وقال النابغة :

فلا تبعدن إن المنية منهل ... وكل امرئ يوما به الحال زائل

ومنه قول الشاعر :

ما كان ينفعنى مقال نسائهم ... وقتلت دون رجالهم لاتبعد

وقد تقدم أن العرب تستعمله فى الدعاء بالهلاك .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ **إلا على الذى فطرنى** ﴾ أى خلقنى . وأخرج ابن عساكر عن الضحاك قال : أمسك الله عن عاد القطر ثلاث سنين ، فقال لهم هود : ﴿ **استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا** ﴾ فأبوا إلا تماديا . وأخرج أبو الشيخ عن هارون التيمى فى قوله : ﴿ **يرسل السماء عليكم مدرارا** ﴾ قال : المطر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ويزدكم قوة إلى قوتكم** ﴾ قال : شدة إلى شدتكم . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة فى قوله : ﴿ **ويزدكم قوة إلى قوتكم** ﴾ قال : ولد الولد . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** ﴾ قال : أصابتك بالجنون . وأخرج ابن أبى حاتم عن يحيى بن سعيد قال : ما من أحد يخاف لصا عاديا ، أو سبعا ضاريا ، أو شيطانا ماردا فيتلو هذه الآية إلا صرفه الله عنه .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **إن ربى على صراط مستقيم** ﴾ قال : الحق . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **عذاب غليظ** ﴾ قال : شديد . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **كل جبار عنيد** ﴾ قال : المشرك . وأخرج ابن

أبى حاتم عن السدى قال : العنيد : المشاق . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى فى قوله : ﴿ **وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة** ﴾ قال : لم يبعث نبى بعد عاد إلا لعنت على لسانه. وأخرج ابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : تتابعت عليهم لعنتان من الله : لعنة فى الدنيا ، ولعنة فى الآخرة .

﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ** (٦١) **قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** (٦٢) **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ** (٦٣) **وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ** (٦٤) **فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ** (٦٥) **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ** (٦٦) **وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ** (٦٧) **كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ** (٦٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا** ﴾ معطوف على ما تقدم ، والتقدير : وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ، والكلام فيه ، وفى قوله : ﴿ **يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ كما تقدم فى قصة هود . وقرأ الحسن ويحيى بن وثاب : «وإلى ثمود » بالتنوين فى جميع المواضع . واختلف سائر القراء فيه فصرفوه فى موضع ولم يصرفوه فى موضع ، فالصرف باعتبار التأويل بالحى ، والمنع باعتبار التأويل بالقبيلة ، وهكذا سائر ما يصح فيه التأويلان ، وأنشد سيبويه فى التأنيث باعتبار التأويل بالقبيلة :

غلب المسامیح الولید جماعة ... وكفى قريش المعضلات وسادها

﴿ **هو أنشأكم من الأرض** ﴾ أى ابتدأ خلقكم من الأرض ، لأن كل بنى آدم من صلب آدم ، وهو مخلوق من الأرض ﴿ **واستعمركم فيها** ﴾ أى جعلكم عمارها وسكانها ، من قولهم: أعمر فلان فلانا داره فهى له عمرى ، فيكون استفعل بمعنى أفعل ، مثل : استجاب بمعنى أجاب . وقال الضحاك : معناه : أطال أعماركم ، وكانت أعمارهم من ثلثمائة إلى ألف. وقيل : معناه : أمركم بعمارتها من بناء المساكن وغرس الأشجار ﴿ **فاستغفروه** ﴾ أى سلوه المغفرة لكم من عبادة الأصنام ﴿ **ثم توبوا إليه** ﴾ أى ارجعوا إلى عبادته ﴿ **إن ربى قريب مجيب** ﴾ أى قريب الإجابة لمن دعاه ، وقد تقدم القول فيه فى البقرة عند قوله تعالى :

﴿ فإنى قريب أجيب دعوة الداع ﴾ [البقرة : ١٨٦] ﴿ **قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا** ﴾ أى كنا نرجو أن تكون فينا سيدا مطاعا ننتفع برأيك ، ونسعد بسيادتك قبل هذا الذى أظهرته من ادعائك النبوة ودعوتك إلى التوحيد . وقيل : كان صالح يعيب آلهتهم وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم ، فلما دعاهم إلى الله قالوا : انقطع رجاؤنا منك ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا** ﴾ للإنكار أنكروا عليه هذا النهى ، وأن نعبد فى محل نصب بحذف الجار ، أى بأن نعبد ، ومعنى ما يعبد آباؤنا : ما كان يعبد آباؤنا. فهو حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة ﴿ **وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب** ﴾ من أربته فأنا أريبه : إذا فعلت به فعلا يوجب له الريبة ، وهى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة ، أو من أراب الرجل : إذا كان ذا ريبة ، والمعنى : إننا لفى شك مما تدعونا إليه من عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان موقع فى الريب .

﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى** ﴾ أى حجة ظاهرة وبرهان صحيح ﴿**وآتانى منه** ﴾ أى من جهته ﴿ **رحمة** ﴾ أى نبوة . وهذه الأمور وإن كانت متحققة الوقوع ، لكنها صدرت بكلمة الشك اعتبارا بحال المخاطبين ، لأنهم فى شك من ذلك ، كما وصفوه عن أنفسهم ﴿ **فمن ينصرنى من الله** ﴾ استفهام معناه النفى ، أى لا ناصر لى يمنعنى من عذاب الله ﴿ **إن عصيته** ﴾ فى تبليغ الرسالة وراقبتكم وفترت عما يجب على من البلاغ ﴿ **فما تزيدوننى** ﴾ بتثبيطكم إياى ﴿ **غير تخسير** ﴾ بأن تجعلونى خاسرا بإبطال عملى ، والتعرض لعقوبة الله لى . قال الفراء : أى تضليل وإبعاد من الخير . وقيل : المعنى : فما تزيدوننى باحتجاجكم [1] بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم .

قوله : ﴿ **ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية** ﴾ قد مر تفسير هذه الآية فى الأعراف ، ومعنى﴿**لكم آية** ﴾ : معجزة ظاهرة، وهى منتصبة على الحال ، ولكم فى محل نصب على الحال من ﴿ **آية** ﴾ مقدمة عليها ، ولو تأخرت لكانت صفة لها . وقيل : إن ناقة الله بدل من هذه، والخبر لكم ، والأول أولى ، وإنما قال : ﴿ **ناقة الله** ﴾ لأنه أخرجها لهم من جبل على حسب اقتراحهم . وقيل : من صخرة صماء ﴿ **فذروها تأكل فى أرض الله** ﴾ أى دعوها تأكل فى أرض الله مما فيها من المراعى التى تأكلها الحيوانات . قال أبو إسحاق الزجاج : ويجوز رفع تأكل على الحال والاستئناف ، ولعله يعنى فى الأصل على ما تقتضيه لغة العرب لا فى الآية ، فالمعتمد القراءات المروية على وجه الصحة ﴿ **ولا تمسوها بسوء** ﴾ قال الفراء : بعقر، والظاهر أن النهى عما هو أعم من ذلك ﴿ **فيأخذكم عذاب قريب** ﴾ جواب النهى ، أى قريب من عقرها ، وذلك ثلاثة أيام ﴿ **فعقروها** ﴾ أى فلم يمتثلوا الأمر من صالح ولا النهى ، بل خالفوا كل ذلك فوقع منهم العقر لها ﴿ **فقال** ﴾ لهم صالح﴿ **تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام** ﴾ أى تمتعوا

(١) فى المطبوعة : « باحتياجكم » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

بالعيش فى منازلكم ثلاثة أيام ، فإن العقاب نازل عليكم بعدها . قيل : إنهم عقروها يوم الأربعاء ، فأقاموا الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد ، والإشارة بقوله : ﴿**ذلك** ﴾ إلى ما يدل عليه الأمر بالتمتع ثلاثة أيام ﴿ **وعد غير مكذوب** ﴾ أى غير مكذوب فيه، فحذف الجار اتساعا ، أو من باب المجاز ، كأن الوعد إذا وفى به صدق ولم يكذب ، ويجوز أن يكون مصدرا ، أى وعد غير كذب .

﴿ **فلما جاء أمرنا** ﴾ أى عذابنا ، أو أمرنا بوقوع العذاب ﴿ **نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا** ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى قصة هود ﴿ **ومن خزى يومئذ** ﴾ أى ونجيناهم من خزى يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة ، والخزى : الذل والمهانة . وقيل : من عذاب يوم القيامة ، والأول أولى . وقرأ نافع والكسائى بفتح :« يوم » على أنه اكتسب البناء من المضاف إليه . وقرأ الباقون بالكسر :﴿ **إن ربك هو القوى العزيز**﴾ القادر الغالب الذى لا يعجزه شىء ﴿ **وأخذ الذين ظلموا الصيحة** ﴾ أى فى اليوم الرابع من عقر الناقة ، صيح بهم فماتوا ، وذكر الفعل لأن الصيحة والصياح واحد مع كون التأنيث غير حقيقى . قيل : صيحة جبريل ، وقيل : صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وماتوا ، وتقدم فى الأعراف ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ [الأعراف: ٧٨] قيل : ولعلها وقعت عقب الصيحة ﴿ **فأصبحوا فى ديارهم جاثمين** ﴾ أى ساقطين على وجوههم موتى قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت ﴿ **كأن لم يغنوا فيها** ﴾ أى كأنهم لم يقيموا فى بلادهم أو ديارهم، والجملة فى محل نصب على الحال ، والتقدير : مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم فى مقام قط ﴿ **ألا إن ثمود كفروا ربهم** ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر ؛ لزيادة البيان، وصرح بكفرهم مع كونه معلوما تعليلا للدعاء عليهم بقوله : ﴿ **ألا بعدا لثمود** ﴾ وقرأ الكسائى بالتنوين . وقد تقدم تفسير هذه القصة فى الأعراف بما يحتاج إلى مراجعته ليضم ما فى إحدى القصتين من الفوائد إلى الأخرى .

وقد أخرج أبو الشيخ عن السدى : ﴿ **هو أنشأكم من الأرض** ﴾ قال : خلقكم من الأرض . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **واستعمركم فيها** ﴾ قال: أعمركم فيها . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد ﴿ **واستعمركم فيها** ﴾ قال : استخلفكم فيها . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **فما تزيدوننى غير تخسير** ﴾ يقول : ما تزدادون أنتم إلا خسارا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء الخراسانى نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **فأصبحوا فى ديارهم جاثمين** ﴾ قال : ميتين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **كأن لم يغنوا فيها** ﴾ قال : كأن لم يعيشوا فيها . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه ، قال : كأن لم يعمروا فيها . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : كأن لم ينعموا فيها .

﴿ **وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ**

حنيذ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾ .

هذه قصة لوط عليه السلام وقومه ، وهو ابن عم إبراهيم عليه السلام ، وكانت قرى لوط بنواحى الشام وإبراهيم ببلاد فلسطين . فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط ، مروا بإبراهيم ونزلوا عنده ، وكان كل من نزل عنده يحسن قراه ، وكان مرورهم عليه لتبشيره بهذه البشارة المذكورة ، فظنهم أضيافا ، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل . وقيل : كانوا تسعة . وقيل: أحد عشر ، والبشرى التى بشروه بها هى بشارته بالولد . وقيل : بإهلاك قوم لوط . والأولى أولى ﴿ **قالوا سلاما** ﴾ منصوب بفعل مقدر ، أى سلمنا عليك سلاما ﴿ **قال سلام** ﴾ ارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى أمركم سلام ، أو مرتفع على أنه مبتدأ والخبر محذوف ، والتقدير : عليكم سلام ﴿ **فما لبث** ﴾ أى إبراهيم ﴿ **أن جاء بعجل حنيذ** ﴾ قال أكثر النحويين :« أن » هنا بمعنى حتى ، أى فما لبث حتى جاء . وقيل : إنها فى محل نصب بسقوط حرف الجر ، والتقدير : فما لبث عن أن جاء ، أى ما أبطأ إبراهيم عن مجيئه بعجل و« ما » نافية ، قاله سيبويه . وقال الفراء : فما لبث مجيئه ، أى ما أبطأ مجيئه . وقيل : إن « ما » موصولة وهى مبتدأ والخبر ﴿ **أن جاء بعجل حنيذ** ﴾ والتقدير : فالذى لبث إبراهيم هو مجيؤه بعجل حنيذ ، والحنيذ : المشوى مطلقا . وقيل : المشوى بحر الحجارة من غير أن تمسه النار ، يقال : حنذ الشاة يحنذها : جعلها فوق حجارة محماة لتنضجها فهى حنيذ . وقيل : معنى حنيذ : سمين . وقيل : الحنيذ : هو السميط . وقيل : النضيج ، وهو فعيل بمعنى مفعول ، وإنما جاءهم بعجل ؛ لأن البقر كانت أكثر أمواله ﴿ **فلما رأى أيديهم لا تصل إليه** ﴾ أى لا يمدونها إلى العجل كما يمد يده من يريد الأكل ﴿ **نكرهم** ﴾ يقال : نكرته وأنكرته واستنكرته : إذا وجدته على غير ما تعهد ، ومنه قول الشاعر :

فأنكرتنى وما كان الذى نكرت ... من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فجمع بين اللغتين ، ومما جمع فيه بين اللغتين قول الشاعر :

إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها ... خرجت مع البازى على سواد

وقيل : يقال : أنكرت لما تراه بعينك ، ونكرت لما تراه بقلبك ، قيل : وإنما استنكر

منهم ذلك ، لأن عادتهم أن الضيف إذا نزل بهم ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه قد جاء بشر ﴿ **وأوجس منهم** ﴾ أى أحس فى نفسه منهم ﴿ **خيفة** ﴾ أى خوفا وفزعا . وقيل : معنى أوجس : أضمر فى نفسه خيفة ، والأول ألصق بالمعنى اللغوى ، ومنه قول الشاعر :

جاء البريد بقرطاس يحث به فأوجس القلب من قرطاسه فزعا

وكأنه ظن أنهم قد نزلوا به لأمر ينكره ، أو لتعذيب قومه ﴿ **قالوا لا تخف** ﴾ قالوا له هذه المقالة مع كونه لم يتكلم بما يدل على الخوف ، بل أوجس ذلك فى نفسه ، فلعلهم استدلوا على خوفه بأمارات كظهور أثره على وجهه ، أو قالوه له بعد ما قال عقب ما أوجس فى نفسه من الخيفة قولا يدل على الخوف ، كما فى قوله فى سورة الحجر : ﴿ قال إنا منكم وجلون ﴾ [الحجر : ٥٢] ، ولم يذكر ذلك هاهنا اكتفاء بما هنالك . ثم عللوا نهيه عن الخوف بقولهم : ﴿ **إنا أرسلنا إلى قوم لوط** ﴾ أى أرسلنا إليهم خاصة ، ويمكن أن يكون إبراهيم عليه السلام قد قال قولا يكون هذا جوابا عنه ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ [الذاريات : ٣١ ، ٣٢] ، وجملة : ﴿ **وامرأته قائمة فضحكت** ﴾ فى محل نصب على الحال . قيل : كانت قائمة عند تحاورهم وراء الستر . وقيل: كانت قائمة تخدم الملائكة وهو جالس . والضحك هنا هو الضحك المعروف الذى يكون للتعجب أو للسرور كما قاله الجمهور . وقال مجاهد وعكرمة : إنه الحيض . ومنه قول الشاعر :

وإنى لآتى العرس عند طهورها وأهجرها يوما إذا تك ضاحكا

وقال الآخر :

وضحك الأرانب فوق الصفا كمثل دم الخوف يوم اللقا

والعرب تقول : ضحكت الأرانب : إذا حاضت . وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون فى كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت .﴿ **فبشرناها بإسحاق** ﴾ ظاهره أن التبشير كان بعد الضحك . وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير . والمعنى : فبشرناها فضحكت سرورا بالولد . وقرأ محمد بن زياد من قراء مكة : « فضحكت » بفتح الحاء ، وأنكره المهدوى . ﴿ **ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾ قرأ حمزة وابن عامر وحفص بنصب ﴿ **يعقوب** ﴾ على أنه مفعول فعل دل عليه ﴿ **فبشرناها** ﴾ ، كأنه قال : ووهبنا لها من وراء إسحاق يعقوب . وأجاز الكسائى والأخفش وأبو حاتم أن يكون ﴿ **يعقوب** ﴾ فى موضع جر . وقال الفراء : لا يجوز الجر إلا بإعادة حرفه . قال سيبويه : ولو قلت : مررت بزيد أول من أمس ، وأمس عمر ، كان قبيحا خبيثا ، لأنك فرقت بين المجرور وما يشركه كما يفرق بين الجار والمجرور . وقرأ الباقون برفع: « يعقوب » على أنه مبتدأ وخبره الظرف الذى قبله . وقيل :الرفع بتقدير فعل محذوف،

أى ويحدث لها ، أو وثبت لها . وقد وقع التبشير هنا لها ، ووقع لإبراهيم فى قوله تعالى : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ [الصافات : ١٠١] ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ [الذاريات : ٢٨] لأن كل واحد منهما مستحق للبشارة به لكونه منهما .

وجملة : ﴿ **قالت ياويلتا** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فماذا قالت ؟ قال الزجاج : أصلها ياويلتى ، فأبدل من الياء ألف لأنها أخف من الياء والكسرة . وهى لم ترد الدعاء على نفسها بالويل ، ولكنها كلمة تقع كثيرا على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يعجبن منه . وأصل الويل : الحزى ، ثم شاع فى كل أمر فظيع . والاستفهام فى قولها : ﴿ **أألد وأنا عجوز** ﴾ للتعجب ، أى كيف ألد وأنا شيخة قد طعنت فى السن ، يقال : عجزت تعجز مخففا ومثقلا عجزا وتعجيزا ، أى طعنت فى السن . ويقال : عجوز وعجوزة ، وأما عجزت بكسر الجيم ، فمعناه : عظمت عجيزتها . قيل : كانت بنت تسع وتسعين ، وقيل : بنت تسعين ﴿ **وهذا بعلى شيخا** ﴾ أى وهذا زوجى إبراهيم شيخا لا تجبل من مثله النساء ، و﴿**شيخا** ﴾ منتصب على الحال ، والعامل فيه معنى الإشارة . قال النحاس : وفى قراءة أبى وابن مسعود : «شيخ » بالرفع على أنه خبر المبتدأ ، أوخبر بعد خبر . أو خبر مبتدأ محذوف، وعلى الأول يكون ﴿ **بعلى** ﴾ بدلا من اسم الإشارة . قيل : كان إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة . وقيل : ابن مائة . وهذه المبشرة هى سارة امرأة إبراهيم . وقد كان ولد لإبراهيم من هاجر أمته إسماعيل ، فتمنت سارة أن يكون لها ابن وأيست منه لكبر سنها ، فبشرها الله به على لسان ملائكته ﴿ **إن هذا لشىء عجيب** ﴾ أى ما ذكرته الملائكة من التبشير بحصول الولد مع كونها فى هذه السن العالية التى لا يولد لمثلها شىء يقضى منه العجب .

وجملة : ﴿ **قالوا أتعجبين من أمر الله** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، والاستفهام فيها للإنكار ، أى كيف تعجبين من قضاء الله وقدره ، وهو لا يستحيل عليه شىء ، وإنما أنكروا عليها مع كون ما تعجبت منه من خوارق العادة لأنها من بيت النبوة ، ولا يخفى على مثلها أن هذا من مقدوراته سبحانه ، ولهذا قالوا : ﴿ **رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت** ﴾ أى الرحمة التى وسعت كل شىء والبركات وهى النمو والزيادة . وقيل : الرحمة : النبوة ، والبركات : الأسباط من بنى إسرائيل لما فيهم من الأنبياء ، وانتصاب ﴿ **أهل البيت** ﴾ على المدح أو الاختصاص ، وصرف الخطاب من صيغة الواحدة إلى الجمع لقصد التعميم ﴿ **إنه حميد** ﴾ أى يفعل موجبات حمده من عباده على سبيل الكثرة ﴿ **مجيد** ﴾ كثير الإحسان إلى عباده بما يفيضه عليهم من الخيرات ، والجملة تعليل لقوله : ﴿ **رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت** ﴾ . قوله : ﴿ **فلما ذهب عن إبراهيم الروع** ﴾ أى الخيفة التى أوجسها فى نفسه ، يقال: ارتاع من كذا : إذا خاف ، ومنه قول النابغة :

فارتاع من صوت كلاب فبات له ... طوع الشوامت من خوف ومن حذر

﴿ **وجاءته البشرى**﴾ أى بالولد، أو بقولهم: لا تخف. قوله: ﴿ **يجادلنا فى قوم لوط** ﴾. قال الأخفش والكسائى: إن ﴿ **يجادلنا** ﴾ فى موضع جادلنا ، فيكون هو جواب ﴿**لما** ﴾ . لما تقرر من أن جوابها يكون بالماضى لا بالمستقبل . قال النحاس : جعل المستقبل مكانه كما يجعل الماضى مكان المستقبل فى الشرط . وقيل : إن الجواب محذوف . و﴿**يجادلنا**﴾ فى موضع نصب على الحال قاله الفراء ، وتقديره : فلما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى اجترأ على خطابنا حال كونه يجادلنا ، أى يجادل رسلنا . وقيل : إن المعنى: أخذ يجادلنا ، ومجادلته لهم قيل : إنه لما سمع قولهم : ﴿ إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴾ [العنكبوت : ٣١] قال : أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين أتهلكونهم ؟ قالوا : لا . قال: فأربعون ؟ قالوا : لا ، قال : فعشرون ؟ قالوا : لا ، ثم قال : فعشرة ، فخمسة ؟ قالوا: لا . قال: فواحد ؟ قالوا : لا ﴿ قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله ﴾ الآية [العنكبوت : ٣٢] ، فهذا معنى مجادلته فى قوم لوط ، أى فى شأنهم وأمرهم . ثم أثنوا على إبراهيم . أو أثنى الله عليه فقال : ﴿ **إن إبراهيم لحليم** ﴾ أى ليس بعجول فى الأمور ، ولا بموقع لها على غير ما ينبغى . والأواه : كثير التأوه . والمنيب: الراجع إلى الله. وقد تقدم فى براءة الكلام على الأواه[1] .

قوله : ﴿ **يا إبراهيم أعرض عن هذا** ﴾ هذا قول الملائكة له، أى أعرض عن هذا الجدال فى أمر قد فرغ منه ، وجف به القلم ، وحق به القضاء ﴿ **إنه قد جاء أمر ربك** ﴾ الضمير للشأن ، ومعنى مجىء أمر الله : مجىء عذابه الذى قدره عليهم ، وسبق به قضاؤه ﴿ **وإنهم آتيهم عذاب غير مردود** ﴾ أى لا يرده دعاء ولا جدال ، بل هو واقع بهم لا محالة ، ونازل بهم على كل حال ليس بمصروف ولا مدفوع .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن عثمان بن محصن فى ضيف إبراهيم قال : كانوا أربعة : جبريل ، وميكائيل . وإسرافيل . ورافئيل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بعجل حنيذ** ﴾ قال : نضيج . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : مشوى . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا قال : سميط . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك قال : الحنيذ : الذى أنضج بالحجارة . وأخرج ابن أبى حاتم عن يزيد بن أبى يزيد البصرى فى قوله : ﴿ **فلما رأى أيديهم لاتصل إليه** ﴾ قال : لم ير لهم أيديا فنكرهم . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **نكرهم** ﴾ قال : كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير ، وأنه يحدث نفسه بشر ، ثم حدثوه عند ذلك بما جاؤوا فيه فضحكت امرأته . وأخرج ابن المنذر عن المغيرة قال : فى مصحف ابن مسعود : « وامرأته قائمة وهو جالس » .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **وامرأته قائمة** ﴾ قال : فى خدمة أضياف إبراهيم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : لما

(١) راجع : تفسير قوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ [التوبة : ١١٤] .

أوجس إبراهيم فى نفسه خيفة حدثوه عند ذلك بما جاؤوا فيه . فضحكت امرأته تعجبا مما فيه قوم لوط من الغفلة ، ومما أتاهم من العذاب . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **فضحكت** ﴾ قال : فحاضت وهى بنت ثمان وتسعين سنة . وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فضحكت** ﴾ قال : حاضت وكانت ابنة بضع وتسعين سنة . وكان إبراهيم ابن مائة سنة . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة قال : حاضت . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾ قال : هو ولد الولد . وأخرج ابن الأنبارى فى كتاب الوقف والابتداء عن حسان بن أبجر قال : كنت عند ابن عباس فجاء رجل من هذيل، فقال له ابن عباس : ما فعل فلان ؟ قال : مات وترك أربعة من الولد وثلاثة من الوراء، فقال ابن عباس : ﴿ **فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾ قال : ولد الولد. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وأبو الشيخ والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس ، أنه كان ينهى عن أن يزاد فى جواب التحية على قولهم : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته . ويتلو هذه الآية : ﴿ **رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت** ﴾ . وأخرج البيهقى عن ابن عمر نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فلما ذهب عن إبراهيم الروع** ﴾ قال : الفرق ﴿ **يجادلنا فى قوم لوط** ﴾ قال : يخاصمنا . وأخرج عبد الرزاق وأبو الشيخ عن قتادة فى تفسير المجادلة قال : إنه قال لهم يومئذ : أرأيتم إن كان فيهم خمسون من المسلمين ؟ قالوا : إن كان فيهم خمسون لم نعذبهم . قال : أربعون ؟ قالوا: وأربعون . قال : ثلاثون ؟ قالوا : وثلاثون ، حتى بلغوا عشرة . قالوا : إن كان فيهم عشرة لم نعذبهم . قال : ما قوم لا يكون فيهم عشرة فيهم خير ؟ قال قتادة : إنه كان فى قرية لوط أربعة آلاف ألف إنسان . أو ما شاء الله من ذلك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : لما جاءت الملائكة إلى إبراهيم قالوا لإبراهيم : إن كان فيها خمسة يصلون رفع عنهم العذاب . وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن ميمون قال : الأواه : الرحيم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : المنيب : المقبل إلى طاعة الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : المنيب : المخلص .

﴿ **وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)** ﴾

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ .

لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ جاؤوا إلى لوط ، فلما رآهم لوط وكانوا فى صورة غلمان حسان مرد ﴿ **سىء بهم** ﴾ أى ساءه مجيئهم . يقال : ساءه يسؤوه ، وأصل سىء بهم : سوىء بهم ، نقلت حركة الواو إلى السين فقلبت الواو ياء ، ولما خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء . وقرأ نافع وابن عامر والكسائى وأبو عمرو بإشمام السين الضم ﴿ **وضاق بهم ذرعا** ﴾ قال الأزهرى : الذرع يوضع موضع الطاقة . وأصله بأن البعير يذرع بيده فى سيره على قدر سعة خطوه ، أى يبسطها . فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك . فجعل ضيق الذرع كناية عن قلة الوسع والطاقة وشدة الأمر . وقيل : هو من ذرعه القىء : إذا غلبه وضاق عن حبسه . والمعنى : أنه ضاق صدره لما رأى الملائكة فى تلك الصورة خوفا عليهم من قومه لما يعلم من فسقهم وارتكابهم لفاحشة اللواط ﴿**وقال هذا يوم عصيب** ﴾ أى شديد . قال الشاعر :

وإنك إن لم ترض بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراق عصيب

يقال : عصيب وعصيصب وعصوصب على التكثير ، أى يوم مكروه يجتمع فيه الشر ، ومنه قيل : عصبة وعصابة ، أى مجتمعو الكلمة ، ورجل معصوب ، أى مجتمع الخلق ﴿**وجاءه قومه يهرعون إليه** ﴾ أى جاؤوا لوطا . الجملة فى محل نصب على الحال . ومعنى ﴿**يهرعون إليه** ﴾ : يسرعون إليه . قال الكسائى والفراء وغيرهما من أهل اللغة : لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع رعدة ، يقال : أهرع الرجل إهراعا ، أى أسرع فى رعدة من برد أو غضب أوحمى ، قال مهلهل :

فجاؤوا يهرعون وهم أسارى نهودهم على رغم الأنوف

وقيل : يهرعون : يهرولون . وقيل : هو مشى بين الهرولة والعدو ، والمعنى : أن قوم لوط لما بلغهم مجىء الملائكة فى تلك الصورة أسرعوا إليه ، كأنما يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه ﴿ **ومن قبل كانوا يعملون السيئات** ﴾ أى ومن قبل مجىء الرسل فى هذا الوقت كانوا يعملون السيئات . وقيل : ومن قبل لوط كانوا يعملون السيئات ، أى كانت عادتهم إتيان الرجال ، فلما جاؤوا إلى لوط ، وقصدوا أضيافه لذلك العمل ، قام إليهم لوط مدافعا و﴿**قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم** ﴾ أى تزوجوهن ، ودعوا ما تطلبونه من

الفاحشة بأضيافى ، وقد كان له ثلاث بنات . وقيل : اثنتان ، وكانوا يطلبون منه أن يزوجهم بهن فيمتنع لخبثهم ، وكان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما بنتيه . وقيل : أراد بقوله : ﴿**هؤلاء بناتى** ﴾ النساء جملة ، لأن نبى القوم أب لهم ، وقالت طائفة : إنما كان هذا القول منه على طريق المدافعة ولم يرد الحقيقة . ومعنى ﴿ **هن أطهر لكم** ﴾ أى أحل وأنزه؛ والتطهر : التنزه عما لا يحل ، وليس فى صيغة أطهر دلالة على التفضيل ، بل هى مثل : « الله أكبر » . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر بنصب :« أطهر » ، وقرأ الباقون بالرفع ؛ ووجه النصب أن يكون اسم الإشارة مبتدأ وخبره : ﴿ **بناتى** ﴾ ، و﴿ **هن** ﴾ ضمير فصل ، و﴿**أطهر**﴾ حال . وقد منع الخليل وسيبويه والأخفش مثل هذا ، لأن ضمير الفصل الذى يسمى عمادا إنما يكون بين كلامين بحيث لا يتم الكلام إلا بما بعدها ، نحو كان زيد هو أخاك ﴿**فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى** ﴾ أى اتقوا الله بترك ما تريدون من الفاحشة بهم ؛ ولا تذلونى وتجلبوا على العار فى ضيفى ، والضيف يطلق على الواحد والاثنين والجماعة ، لأنه فى الأصل مصدر ، ومنه قول الشاعر :

لا تعدمى الدهر شفار الجازر للضيف والضيف أحق زائر

ويجوز فيه التثنية والجمع ، والأول أكثر . يقال : خزى الرجل خزاية ، أى استحيا أو ذل أو هان ، وخزى خزيا :إذا افتضح ، ومعنى ﴿ **فى ضيفى** ﴾ : فى حق ضيفى ، فخزى الضيف خزى للمضيف ، ثم وبخهم فقال : ﴿ **أليس منكم رجل رشيد** ﴾ يرشدكم إلى ترك هذا العمل القبيح ويمنعكم منه ، فأجابوا عليه معرضين عما نصحهم به ، وأرشدهم إليه بقولهم: ﴿ **ما لنا فى بناتك من حق** ﴾ أى مالنا فيهم من شهوة ولا حاجة ، لأن من احتاج إلى شىء فكأنه حصل له فيه نوع حق ، ومعنى ما نسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان الذكور وشدة الشهوة إليهم ، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء ؛ ويمكن أن يريدوا : أنه لا حق لنا فى نكاحهن ، لأنه لا ينكحهن ويتزوج بهن إلا مؤمن ونحن لا نؤمن أبدا . وقيل : إنهم كانوا قد خطبوا بناته من قبل فردهم ، وكان من سنتهم أن من خطب فرد فلا تحل المخطوبة أبدا ﴿ **وإنك لتعلم ما نريد** ﴾ من إتيان الذكور .

ثم إنه لما علم تصميمهم على الفاحشة وأنهم لا يتركون ما قد طلبوه ﴿ **قال لو أن لى بكم قوة** ﴾ وجواب « لو » محذوف ، والتقدير : لدافعتكم عنهم ومنعتكم منهم ، وهذا منه عليه السلام على طريق التمنى ، أى لو وجدت معينا وناصرا. فسمى ما يتقوى به قوة ﴿ **أو آوى إلى ركن شديد** ﴾ عطف على ما بعد « لو » لما فيه من معنى الفعل ، والتقدير : لو قويت على دفعكم ، أو آويت إلى ركن شديد . وقرئ :« أو آوى » بالنصب عطفا على قوة كأنه قال : لو أن لى بكم قوة، أو إيواء إلى ركن شديد ، ومراده بالركن الشديد : العشيرة ، وما يمتنع به عنهم هو ومن معه . وقيل : أراد بالقوة : الولد، وبالركن الشديد : من ينصره من غير ولده.

وقيل : أراد بالقوة : قوته فى نفسه . ولما سمعته الملائكة يقول هذه المقالة ، ووجدوا قومه قد غلبوه وعجز عن مدافعتهم ﴿ **قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك** ﴾ أخبروه أولا أنهم رسل ربه ثم بشروه بقولهم : ﴿ **لن يصلوا إليك** ﴾ وهذه الجملة موضحة لما قبلها ؛ لأنهم إذا كانوا مرسلين من عند الله إليه لم يصل عدوه إليه ولم يقدروا عليه ، ثم أمروه أن يخرج عنهم فقالوا له : ﴿ **فأسر بأهلك بقطع من الليل** ﴾ قرأ نافع وابن كثير بالوصل ، وقرأ غيرهما بالقطع ، وهما لغتان فصيحتان . قال الله تعالى : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ [الفجر : ٤] وقال: ﴿سبحان الذى أسرى ﴾ [الإسراء : ١] وقد جمع الشاعر بين اللغتين فقال :

حى النضير وربة الخدر أسرت عليه ولم تكن تسرى

وقيل : إن أسرى للمسير من أول الليل ، وسرى للمسير من آخره . والقطع من الليل : الطائفة منه . قال ابن الأعرابى : ﴿**بقطع من الليل** ﴾ : بساعة منه . وقال الأخفش : بجنح من الليل . وقيل : بظلمة من الليل . وقيل : بعد هدو من الليل . قيل : إن السرى لا يكون إلا فى الليل ، فما وجه زيادة بقطع من الليل ؟ قيل : لو لم يقل بقطع من الليل لجاز أن يكون فى أوله قبل اجتماع الظلمة ، وليس ذلك بمراد ﴿ **ولا يلتفت منكم أحد** ﴾ أى لا ينظر إلى ما وراءه ، أو يشتغل بما خلفه من مال أو غيره . قيل : وجه النهى عن الالتفات ألا يروا عذاب قومهم ، وهول ما نزل بهم فيرحموهم ويرقوا لهم ، أو لئلا ينقطعوا عن السير المطلوب منهم بما يقع من الالتفات ، فإنه لابد للملتفت من فترة فى سيره ﴿ **إلا امرأتك** ﴾ بالنصب على قراءة الجمهور ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالرفع على البدل ، فعلى القراءة الأولى امرأته مستثناة من قوله : ﴿ **فأسر بأهلك**﴾ أى أسر بأهلك جميعا إلا امرأتك فلا تسر بها ، فإنه ﴿ **مصيبها ما أصابهم** ﴾ من العذاب ، وهو رميهم بالحجارة لكونها كانت كافرة ؛ وأنكر قراءة الرفع جماعة منهم أبو عبيد وقال : لا يصح ذلك إلا برفع ﴿ **يلتفت** ﴾ ويكون نعتا ، لأن المعنى يصير إذا أبدلت وجزمت أن المرأة أبيح لها الالتفات وليس المعنى كذلك . قال النحاس : وهذا العمل من أبى عبيد وغيره على مثل أبى عمرو مع جلالته ومحله من العربية لا يجب أن يكون ، والرفع على البدل له معنى صحيح ، وهو أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات ، أى لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت وتهلك . وقيل : إن الرفع على البدل من ﴿ **أحد** ﴾ ، ويكون الالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر إلى الخلف ، فكأنه قال : ولا يتخلف منكم أحد إلا امرأتك ، فإنها تتخلف ، والملجئ إلى هذا التأويل البعيد الفرار من تناقض القراءتين ، والضمير فى ﴿ **إنه مصيبها ما أصابهم** ﴾ للشأن، والجملة خبر إن ، ﴿ **إن موعدهم الصبح** ﴾ هذه الجملة تقليل لما تقدم من الأمر بالإسراء والنهى عن الالتفات ، والمعنى : أن موعد عذابهم الصبح المسفر عن تلك الليلة، والاستفهام فى :﴿ **أليس الصبح بقريب** ﴾ للإنكار التقريرى ، والجملة تأكيد للتعليل . وقرأ عيسى بن عمر : « أليس الصبح » بضم الباء وهى لغة ، ولعل جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم لكون النفوس فيه أسكن ،

والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا إلى أعمالهم .

﴿ **فلما جاء أمرنا** ﴾ أى الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه ، أو المراد بالأمر : نفس العذاب ﴿ جعلنا عاليها سافلها﴾ أى عالى قرى قوم لوط سافلها ، والمعنى : أنه قلبها على هذه الهيئة ، وهى كون عاليها صار سافلها ، وسافلها صار عاليها ، وذلك لأن جبريل أدخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء ثم قلبها عليهم ﴿**وأمطرنا عليها حجارة من سجيل** ﴾ قيل : إنه يقال : أمطرنا فى العذاب ومطرنا فى الرحمة . وقيل : هما لغتان ، يقال : مطرت السماء و أمطرت حكى ذلك الهروى . والسجيل : الطين المتحجر بطبخ أو غيره . وقيل : هو الشديد الصلب من الحجارة . وقيل : السجيل الكثير . وقيل : إن السجيل لفظة غير عربية ، أصله سج وجيل ، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العرب فجعلتهما اسما واحدا . وقيل : هو من لغة العرب . وذكر الهروى : أن السجيل اسم لسماء الدنيا . قال ابن عطية : وهذا ضعيف يرده وصفه بمنضود . وقيل : هو بحر معلق فى الهواء بين السماء والأرض . وقيل : هى جبال فى السماء . وقال الزجاج : هو من التسجيل لهم ، أى ما كتب لهم من العذاب فهو فى معنى سجين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم ﴾ [المطففين : ٨ ، ٩] وقيل : هو من أسجلته : إذا أعطيته ، فكأنه عذاب أعطوه ، ومنه قول الشاعر :

من يساجلنى يساجل ماجدا يملأ الدلو إلى عقد الكرب

ومعنى : ﴿ **منضود** ﴾ أنه نضد بعضه فوق بعض . وقيل : بعضه فى أثر بعض ، يقال: نضدت المتاع : إذا جعلت بعضه على بعض ، فهو منضود ونضيد . والمسومة : المعلمة، أى التى لها علامة . قيل : كان عليها أشال الخواتيم . وقيل : مكتوب على كل حجر اسم من رمى به . وقال الفراء . زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد فى بياض . فذلك تسويمها؛ ومعنى : ﴿ **عند ربك** ﴾ فى خزائنه ﴿ **وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾ أى وما هذه الحجارة الموصوفة من الظالمين وهم قوم لوط ببعيد ، أو ما هى من كل ظالم من الظلمة ومنهم كفار قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد ﷺ ببعيد . فهم لظلمهم مستحقون لها . وقيل : ﴿ **وما هى** ﴾ أى قرى ﴿ **من الظالمين** ﴾ من كفر بالنبى ﷺ ﴿ **ببعيد** ﴾ فإنها بين الشام والمدينة. وفى إمطار الحجارة قولان : أحدهما : أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل . والثانى : أنها أمطرت على من لم يكن فى المدن من أهلها وكان خارجا عنها . وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو إجراء له على موصوف مذكر، أى شىء بعيد ، أو مكان بعيد، أو لكونه مصدرا كالزفير والصهيل ، والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا** ﴾ قال : ساء ظنا بقومه ، وضاق ذرعا بأضيافه ﴿ **وقال**

هذا يوم عصيب ﴾ يقول : شديد . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿**يهرعون إليه** ﴾ قال : يسرعون ﴿ **ومن قبل كانوا يعملون السيئات** ﴾ قال : يأتون الرجال. وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عنه أيضا قال : ﴿ **يهرعون إليه** ﴾ يستمعون إليه . وأخرج أبو الشيخ عنه أيضا فى قوله : ﴿ **هؤلاء بناتى** ﴾ قال : ما عرض لوط بناته على قومه لا سفاحا ولا نكاحا . إنما قال هؤلاء نساؤكم ، لأن النبى إذا كان بين ظهرانى قوم فهو أبوهم . قال الله تعالى فى القرآن : « وأزواجه أمهاتهم وهو أبوهم » فى قراءة أبى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : لم تكن بناته ولكن كن من أمته . وكل نبى أبو أمته وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن عساكر عن السدى نحوه . قال : وفى قراءة عبد الله : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وأزواجه أمهاتهم » . وأخرج ابن أبى حاتم عن حذيفة بن اليمان قال : عرض عليهم بناته تزويجا . وأراد أن يقى أضيافه بتزويج بناته . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى قوله :﴿ **ولا تخزونى فى ضيفى** ﴾ قال : لا تفضحونى . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك : ﴿ **أليس منكم رجل رشيد** ﴾ قال : رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وأخرج أبو الشيخ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس ﴿ **أليس منكم رجل رشيد**﴾ قال : واحد يقول : لا إله إلا الله . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى ﴿ **وإنك لتعلم ما نريد** ﴾ قال : إنما نريد الرجال ﴿ **قال** ﴾ لوط ﴿ **لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد** ﴾ يقول : إلى جند شديد لمقاتلتكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **أو آوى إلى ركن شديد** ﴾ قال : عشيرة . وقد ثبت فى البخارى وغيره من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « يغفر الله للوط إن كان يأوى إلى ركن شديد » (١) وهو مروى فى غير الصحيح من طريق غيره من الصحابة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ **بقطع من الليل** ﴾ قال : جوف الليل . وأخرجا عنه قال : بسواد الليل . وأخرج عبد الرزاق عن قتادة قال : بطائفة من الليل. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا يلتفت منكم أحد** ﴾ قال : لا يتخلف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ولا يلتفت منكم أحد** ﴾ قال : لا ينظر وراءه أحد ﴿ **إلا امرأتك** ﴾ . وأخرج أبو عبيد وابن جرير عن هارون قال : فى حرف ابن مسعود : « فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك » .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها** ﴾ قال : لما أصبحوا غدا جبريل على قريتهم فقلعها من أركانها . ثم أدخل جناحه ثم حملها على خوافى جناحه بما فيها ، ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم

---

(١) أحمد ٢ / ٣٢٢ والبخارى فى الأنبياء (٣٣٨٧) ومسلم فى الفضائل (١٥١ / ١٥٣) .

قلبها، فكان أول ما سقط منها سرادقها ، فلم يصب قوما ما أصابهم ، ثم إن الله طمس على أعينهم ، ثم قلبت قريتهم ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل . وقد ذكر المفسرون روايات وقصصا فى كيفية هلاك قوم لوط طويلة متخالفة . وليس فى ذكرها فائدة لاسيما وبين من قال بشىء من ذلك وبين هلاك قوم لوط دهر طويل لا يتيسر له فى مثله إسناد صحيح . وغالب ذلك مأخوذ عن أهل الكتاب . وحالهم فى الرواية معروف .وقد أمرنا بأنا لا نصدقهم ولا نكذبهم . فاعرف هذا ، فهو الوجه فى حذفنا لكثير من هذه الروايات الكائنة فى قصص الأنبياء وقومهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿**وما هى من الظالمين ببعيد**﴾ قال :يرهب بها قريش أن يصيبهم ما أصاب القوم . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال : من ظلمة العرب إن لم يؤمنوا فيعذبوا بها . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن أبى حاتم عن قتادة قال : من ظالمى هذه الأمة .

﴿**وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾** .

أى وأرسلنا إلى مدين وهم قوم شعيب أخاهم فى النسب شعيبا . وسموا مدين باسم أبيهم ، وهو مدين بن إبراهيم . وقيل : باسم مدينتهم . قال النحاس : لا ينصرف مدين لأنه اسم مدينة ، وقد تقدم الكلام على هذا فى الأعراف بأبسط مما هنا ، وقد تقدم تفسير : ﴿**قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ فى أول السورة ، وهذه الجملة مستأنفة ؛ كأنه قيل : ماذا قال لهم شعيب لما أرسله الله إليهم ؟ وقد كان شعيب عليه السلام يسمى خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه ، أمرهم أولا بعبادة الله سبحانه الذى هو الإله وحده لا شريك له ، ثم نهاهم عن أن ينقصوا المكيال والميزان ، لأنهم كانوا مع كفرهم أهل تطفيف ، كانوا إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد وكذلك إذا وصل إليهم الموزون أخذوا بوزن زائد ، وإذا باعوا باعوا بكيل ناقص ووزن ناقص ؛ وجملة : ﴿ **إنى أراكم بخير** ﴾ تعليل للنهى ، أى لا تنقصوا المكيال والميزان لأنى أراكم بخير ، أى بثروة واسعة فى الرزق فلا تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته والإضرار بعباده ، ففى هذه النعمة ما يغنيكم عن أخذ أموال الناس بغير حقها؛ ثم ذكر بعد هذه العلة علة أخرى ، فقال : ﴿ **وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط** ﴾ فهذه العلة فيها الإذكار لهم بعذاب الآخرة كما أن العلة الأولى فيها الإذكار لهم بنعيم الدنيا ، ووصف اليوم بالإحاطة والمراد العذاب ، لأن العذاب واقع فى اليوم ؛ ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم : أنه لا يشذ منهم أحد عنه ولا يجدون منه ملجأ ولا مهربا ، واليوم هو يوم القيامة . وقيل : هو يوم الانتقام منهم فى الدنيا بالصيحة .

ثم أكد النهى عن نقص الكيل والوزن بقوله : ﴿ **ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط** ﴾ والإيفاء : هو الإتمام . والقسط : العدل ، وهو عدم الزيادة والنقص وإن كان الزيادة على الإيفاء فضل وخير ، ولكنها فوق ما يفيده اسم العدل ، والنهى عن النقص وإن كان يستلزم الإيفاء ففى تعاضد الدلالتين مبالغة بليغة وتأكيد حسن ، ثم زاد ذلك تأكيدا فقال : ﴿**ولا تبخسوا الناس أشياءهم** ﴾ قد مر تفسير هذا فى الأعراف ، وفيه النهى عن البخس على العموم، والأشياء أعم مما يكال ويوزن فيدخل البخس بتطفيف الكيل والوزن فى هذا دخولا أوليا . وقيل: البخس [1]: المكس خاصة ، ثم قال : ﴿ **ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ قد مر أيضا تفسيره فى البقرة . والعثى فى الأرض يشمل كل ما يقع فيها من الإضرار بالناس فيدخل فيه ما فى السياق من نقص المكيال والميزان ، وقيده بالحال وهو قوله : ﴿ **مفسدين** ﴾ ليخرج ما كان صورته من العثى فى الأرض ، والمقصود به الإصلاح كما وقع من الخضر فى السفينة ﴿ **بقيت الله خير لكم** ﴾ أى ما يبقيه لكم من الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر خيرا وبركة مما تبقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس والفساد فى الأرض . ذكر معناه ابن جرير وغيره من المفسرين . وقال مجاهد : بقية الله : طاعته . وقال الربيع : وصيته . وقال الفراء : مراقبته،

---

(١) وقيل : البخس : الهضم والنقص والظلم .

وإنما قيد ذلك بقوله : ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ لأن ذلك إنما ينتفع به المؤمن لا الكافر ، أو المراد بالمؤمنين هنا : المصدقون لشعيب ﴿ **وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ أحفظكم من الوقوع فى المعاصى من التطفيف والبخس وغيرهما . أو أحفظ عليكم أعمالكم وأحاسبكم بها وأجازيكم عليها .

وجملة : ﴿ **قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا** ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قالوا لشعيب ؟ وقرئ : « أصلاتك » بالإفراد ، و﴿ **أن نترك** ﴾ فى موضع نصب . وقال الكسائى : موضعها خفض على إضمار الباء ، ومرادهم بما يعبد آباؤهم ما كانوا يعبدون من الأوثان ، والاستفهام للإنكار عليه والاستهزاء به ؛ لأن الصلوات عندهم ليست من الخير الذى يقال لفاعله عند إرادة تليين قلبه وتذليل صعوبته ، كما يقال لمن كان كثير الصدقة إذا فعل ما لايناسب الصواب : أصدقتك أمرتك بهذا . وقيل : المراد بالصلاة هنا : القراءة . وقيل : المراد بها : الدين . وقيل : المراد بالصلوات : أتباعه ، ومنه المصلى الذى يتلو السابق ؛ وهذا منهم جواب لشعيب عن أمره لهم بعبادة الله وحده ، وقولهم : ﴿ **أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء** ﴾ جواب له عن أمرهم بإيفاء الكيل والوزن ، ونهيهم عن نقصهما وعن بخس الناس وعن العثى فى الأرض ، وهذه الجملة معطوفة على ﴿ **ما** ﴾ فى : ﴿ **ما يعبد آباؤنا** ﴾ . والمعنى : أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وتأمرك أن نترك أن نفعل فى أموالنا ما نشاء من الأخذ والإعطاء والزيادة والنقص . وقرئ : « تفعل ما تشاء » بالفوقية فيهما . قال النحاس : فتكون ﴿ **أو** ﴾ على هذه القراءة للعطف على أن الأولى ، والتقدير : أصلواتك تأمرك أن تفعل فى أموالنا ما تشاء . وقرئ « نفعل » بالنون و« ما تشاء » بالفوقية ، ومعناه : أصلواتك تأمرك أن نفعل نحن فى أموالنا ما تشاؤه أنت وندع ما نشاؤه نحن وما يجرى به التراضى بيننا ؛ ثم وصفوه بوصفين عظيمين فقالوا : ﴿ **إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾ على طريقة التهكم به ، لأنهم يعتقدون أنه على خلافهما ، أو يريدون إنك لأنت الحليم الرشيد عند نفسك وفى اعتقادك ، ومعناهم : أن هذا الذى نهيتنا عنه وأمرتنا به يخالف ما تعتقده فى نفسك من الحلم والرشد . وقيل : إنهم قالوا ذلك لا على طريقة الاستهزاء بل هو عندهم كذلك ، وأنكروا عليه الأمر والنهى منه لهم بما يخالف الحلم والرشد فى اعتقادهم . وقد تقدم تفسير الحلم والرشد.

وجملة : ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى** ﴾ مستأنفة كالجمل التى قبلها، والمعنى : أخبرونى إن كنت على حجة واضحة من عند ربى فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه ﴿**ورزقنى منه** ﴾ أى من فضله وخزائن ملكه ﴿ **رزقا حسنا** ﴾ أى كثيرا واسعا حلالا طيبا ، وقد كان عليه السلام كثير المال . وقيل : أراد بالرزق : النبوة . وقيل : الحكمة . وقيل : العلم . وقيل : التوفيق ، وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام تقديره : أترك أمركم ونهيكم ، أو أتقولون فى شأنى ما تقولون مما تريدون به السخرية والاستهزاء ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه** ﴾ أى وما أريد بنهى لكم عن التطفيف والبخس أن

أخالفكم إلى ما نهيتكم عنه فأفعله دونكم ، يقال : خالفه إلى كذا إذا قصده وهو مول عنه ، وخالفته عن كذا فى عكس ذلك ﴿ **إن أريد إلا الإصلاح** ﴾ أى ما أريد بالأمر والنهى إلا الإصلاح لكم ، ودفع الفساد فى دينكم ومعاملاتكم ﴿ ما **استطعت** ﴾ ما بلغت إليه استطاعتى ، وتمكنت منه طاقتى ﴿ وما **توفيقى إلا بالله** ﴾ أى ما صرت موفقا هاديا نبيا مرشدا إلا بتأييد الله سبحانه ، وإقدارى عليه ، ومنحى إياه ﴿ **عليه توكلت** ﴾ فى جميع أمورى التى منها أمركم ونهيكم ﴿ **وإليه أنيب** ﴾ أى أرجع فى كل ما نابنى من الأمور وأفوض جميع أمورى إلى ما يختاره لى من قضائه وقدره . وقيل : معناه : وإليه أرجع فى الآخرة . وقيل : إن الإنابة : الدعاء ، ومعناه : وله أدعو .

قوله : ﴿ **ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى** ﴾ قال الزجاج : معناه لا يكسبنكم شقاقى إصابة العذاب إياكم كما أصاب من كان قبلكم ؛ وقيل : معناه : لا يحملنكم شقاقى ، والشقاق : العداوة ، ومنه قول الأخطل :

ألا من مبلغ عنى رسولا فكيف وجدتم طعم الشقاق

و﴿ **أن يصيبكم** ﴾ فى محل نصب على أنه مفعول ثان ليجرمنكم ﴿ **مثل ما أصاب قوم نوح** ﴾ من الغرق ﴿ **أو قوم هود** ﴾ من الريح ﴿ **أو قوم صالح** ﴾ من الصيحة ، وقد تقدم تفسير يجرمنكم وتفسير الشقاق ﴿ **وما قوم لوط منكم ببعيد** ﴾ يحتمل أن يريد ليس مكانهم ببعيد من مكانكم أو ليس زمانهم ببعيد من زمانكم ، أو ليسوا ببعيد منكم فى السبب الموجب لعقوبتهم ، وهو مطلق الكفر ، وأفرد لفظ ﴿ **بعيد** ﴾ لمثل ما سبق فى ﴿ **وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾ .

ثم بعد ترهيبهم بالعذاب أمرهم بالاستغفار والتوبة فقال : ﴿ **واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود** ﴾ وقد تقدم تفسير الاستغفار مع ترتيب التوبة عليه فى أول السورة . وتقدم تفسير الرحيم . والمراد هنا : أنه عظيم الرحمة للتائبين . والودود : المحب . قال فى الصحاح [١] : وددت الرجل أوده ودا : إذا أحببته ، والودود : المحب ، والودّ والوُدّ والوَدّ : المحبة ، والمعنى هنا : أنه يفعل بعباده ما يفعله من هو بليغ المودة بمن يوده من اللطف به وسوق الخير إليه ودفع الشر عنه . وفى هذا تعليل لما قبله من الأمر بالاستغفار والتوبة .

وجملة : ﴿ **قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول** ﴾ مستأنفة كالجمل السابقة ، والمعنى : أنك تأتينا بما لا عهد لنا به من الإخبار بالأمور الغيبية كالبعث والنشور ولا نفقه ذلك ، أى نفهمه كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة ، فيكون نفى الفقه على هذا حقيقة لا مجازا . وقيل : قالوا ذلك إعراضا عن سماعه ، واحتقار الكلام مع كونه مفهوما لديهم معلوما عندهم ، فلا

---

(١) مختار الصحاح ص٧١٤ .

يكون نفى الفقه حقيقة بل مجازا . يقال : فقه يفقه : إذا فهم فِقْها وفَقها ، وحكى الكسائى فقهانا . ويقال : فقه فقها : إذا صار فقيها ﴿ **وإنا لنراك فينا ضعيفا** ﴾ أى : لا قوة لك تقدر بها على أن تمنع نفسك منا وتتمكن بها من مخالفتنا . وقيل : المراد أنه ضعيف فى بدنه ، قاله على بن عيسى . وقيل : إنه كان مصابا ببصره . قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى : ضعيف ، أى قد ضعف بذهاب بصره كما يقال له : ضرير ، أى قد ضر بذهاب بصره . وقيل : الضعيف : المهين . وهو قريب من القول الأول ﴿**ولولا رهطك لرجمناك** ﴾ رهط الرجل : عشيرته الذين يستند إليهم ويتقوى بهم ، ومنه الراهط لجحر اليربوع ، لأنه يتوثق به ويخبأ فيه ولده ، والرهط يقع على الثلاثة إلى العشرة . وإنما جعلوا رهطه مانعا من إنزال الضرر به مع كونهم فى قلة والكفار ألوف مؤلفة ؛ لأنهم كانوا على دينهم فتركوه احتراما لهم لا خوفا منهم ، ثم أكدوا ما وصفوه به من الضعف بقولهم : ﴿ **وما أنت علينا بعزيز** ﴾ حتى نكف عنك لأجل عزتك عندنا ، بل تركنا رجمك لعزة رهطك علينا، ومعنى ﴿ **لرجمناك** ﴾ : لقتلناك بالرجم ، وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة . وقيل : معنى ﴿ **لرجمناك** ﴾ لشتمناك ، ومنه قول الجعدى :

تراجمنا بمر القول حتى نصير كأننا فرسا رهان

ويطلق الرجم على اللعن ، ومنه الشيطان الرجيم . وجملة : ﴿ **قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله** ﴾ مستأنفة ، وإنما قال : أعز عليكم من الله ، ولم يقل : أعز عليكم منى ؛ لأن نفى العزة عنه وإثباتها لقومه كما يدل عليه إيلاء الضمير حرف النفى استهانة به ، والاستهانة بأنبياء الله استهانة بالله عز وجل ، فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعز عليه من الله، فاستنكر ذلك عليهم وتعجب منه ، وألزمهم مالا مخلص لهم عنه ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام ، وفى هذا من قوة المحاجة ووضوح المجادلة وإلقام الخصم الحجر ما لا يخفى ، ولأمر ما سمى شعيب خطيب الأنبياء ، والضمير فى ﴿ **واتخذتموه** ﴾ راجع إلى الله سبحانه ، والمعنى : واتخذتم الله عز وجل بسبب عدم اعتدادكم بنبيه الذى أرسله إليكم ﴿ **وراءكم ظهريا** ﴾ أى منبوذا وراء الظهر لا تبالون به . وقيل : المعنى : واتخذتم أمر الله الذى أمرنى بإبلاغه إليكم ، وهو ماجئتكم به وراء ظهوركم ، يقال : جعلت أمره بظهر : إذا قصرت فيه، و﴿ **ظهريا** ﴾ منسوب إلى الظهر ، والكسر لتغيير النسب ﴿ **إن ربى بما تعملون محيط** ﴾ لا يخفى عليه شىء من أقوالكم وأفعالكم .

﴿ **ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون** ﴾ : لما رأى إصرارهم على الكفر وتصميمهم على دين آبائهم ، وعدم تأثير الموعظة فيهم ، توعدهم بأن يعملوا على غاية تمكنهم ونهاية استطاعتهم ، يقال : مكن مكانة : إذا تمكن أبلغ تمكن ، وأخبرهم أنه عامل على حسب ما يمكنه ويقدر الله له ، ثم بالغ فى التهديد والوعيد بقوله : ﴿ **سوف تعلمون** ﴾

أى عاقبة ما أنتم فيه من عبادة غير الله والإضرار بعباده ، وقد تقدم مثله فى الأنعام ﴿ **من يأتيه عذاب يخزيه** ﴾ : « من » فى محل نصب بـ ﴿ **تعلمون** ﴾ ، أى سوف تعلمون من هو الذى يأتيه العذاب المخزى الذى يتأثر عنه الذل والفضيحة والعار ﴿ **ومن هو كاذب** ﴾ معطوف على : ﴿ **من يأتيه** ﴾ ، والمعنى : ستعلمون من هو المعذب ومن هو الكاذب ؟ وفيه تعريض بكذبهم فى قولهم : ﴿ **لولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز** ﴾ . وقيل : إن « من » مبتدأ وما بعدها صلتها ، والخبر محذوف ، والتقدير : من هو كاذب فسيعلم كذبه ويذوق وبال أمره . قال الفراء : إنما جاء بهو فى ﴿ **من هو كاذب** ﴾ لأنهم لا يقولون : من قائم ، إنما يقولون : من قام ، ومن يقوم ، ومن القائم ، فزادوا هو ليكون جملة تقوم مقام فعل ويفعل . قال النحاس : ويدل على خلاف هذا قول الشاعر :

من رسولى إلى الثريا فإنى ضقت ذرعا بهجرها والكتاب

﴿ **وارتقبوا إنى معكم رقيب** ﴾ أى انتظروا إنى معكم منتظر لما يقضى به الله بيننا ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه** ﴾ أى لما جاء عذابنا أو أمرنا بعذابهم نجينا شعيبا وأتباعه الذين آمنوا به ﴿ **برحمة منا** ﴾ لهم بسبب إيمانهم، أو برحمة منا لهم ، وهى هدايتهم للإيمان ﴿ **وأخذت الذين ظلموا** ﴾ غيرهم بما أخذوا من أموالهم بغير وجه وظلموا أنفسهم بالتصميم على الكفر ﴿ **الصيحة** ﴾ التى صاح بهم جبرائيل حتى خرجت أرواحهم من أجسادهم ، وفى الأعراف : ﴿ فأخذتهم الرجفة﴾ [الآية : ٧٨] وكذا فى العنكبوت . وقد قدمنا أن الرجفة : الزلزلة ، وأنها تكون تابعة للصيحة لتموج الهوى المفضى إليها ﴿ **فأصبحوا فى ديارهم جاثمين**﴾ أى ميتين . وقد تقدم تفسيره وتفسير﴿ **كأن لم يغنوا فيها**﴾ قريبا ، وكذا تفسير﴿ **ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود** ﴾ وحكى الكسائى أن أبا عبد الرحمن السلمى قرأ : «كما بعدت ثمود » بضم العين . قال المهدوى : من ضم العين من « بعدت » فهى لغة تستعمل فى الخير والشر ، و« بعدت » بالكسر على قراءة الجمهور تستعمل فى الشر خاصة ، وهى هنا بمعنى اللعنة .

وقد أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنى أراكم بخير** ﴾ قال : رخص السعر ﴿ **وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط** ﴾ قال : غلاء السعر . وأخرج ابن جرير عنه ﴿ **بقية الله** ﴾ قال : رزق الله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ **بقية الله خير لكم** ﴾ يقول : حظكم من ربكم خير لكم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : طاعة الله . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الأعمش فى قوله : ﴿ **أصلواتك تأمرك** ﴾ قال : أقراءتك . وأخرج ابن عساكر عن الأحنف : أن شعيبا كان أكثر الأنبياء صلاة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء** ﴾ قال : نهاهم عن

قطع هذه الدنانير والدراهم فقالوا : إنما هى أموالنا نفعل فيها ما نشاء ، إن شئنا قطعناها ، وإن شئنا أحرقناها ، وإن شئنا طرحناها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب نحوه . وأخرجا عن زيد بن أسلم نحوه أيضا . وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن المنذر وأبو الشيخ وعبد بن حميد عن سعيد بن المسيب نحوه أيضا . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾ قال : يقولون : إنك لست بحليم ولا رشيد . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : استهزاء به .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله : ﴿ **ورزقنى منه رزقا حسنا** ﴾ قال : الحلال . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة فى قوله : ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه** ﴾ قال : يقول لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركبه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإليه أنيب** ﴾ قال : إليه أرجع . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن على قال : قلت : يا رسول الله ، أوصنى ، قال : « قل الله ربى ثم استقم » ، قلت : ربى الله وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، قال : « ليهنك العلم أبا الحسن ، لقد شربت العلم شربا ونهلته نهلا » (١) وفى إسناده محمد بن يوسف الكديمى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ **لا يجرمنكم شقاقى** ﴾ لا يحملنكم فراقى . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : شقاقى : عداوتى . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى قال . لا تحملنكم عداوتى . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **وما قوم لوط منكم ببعيد** ﴾ قال : إنما كانوا حديثى عهد قريب بعد نوح وثمود .

وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن سعيد بن جبير ﴿ **وإنا لنراك فينا ضعيفا** ﴾ قال : كان أعمى ، وإنما عمى من بكائه من حب الله عز وجل . وأخرج الواحدى وابن عساكر عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « بكى شعيب عليه السلام من حب الله حتى عمى »(٢) . وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإنا لنراك فينا ضعيفا** ﴾ قال : كان ضرير البصر . وأخرج أبو الشيخ عن أبى صالح مثله . وأخرج أبو الشيخ عن سفيان فى قوله : ﴿ **وإنا لنراك فينا ضعيفا** ﴾ قال : كان أعمى ، وكان يقال له خطيب الأنبياء . وأخرج أبو الشيخ عن السدى قال : معناه : إنما أنت واحد . وأخرج أبو الشيخ عن على بن أبى طالب أنه خطب فتلا هذه الآية فى شعيب ﴿ **وإنا لنراك فينا ضعيفا** ﴾ قال : كان مكفوفا ، فنسبوه إلى الضعف ﴿ **ولولا رهطك لرجمناك** ﴾ قال

---

(١) أبو نعيم ١/ ٦٥ .

(٢) أورده الخطيب فى تاريخه ٦/ ٣١٥ وقال: «فيه إسماعيل بن على بن الحسن، وقال: قدم علينا بغداد حاجا وسمعت منه بها حديثا واحدا مسندا منكرا ولم يكن موثوقا به فى الرواية» والأحاديث الموضوعة والضعيفة ٢/ ٤٢٦ وكذلك كنز العمال ١١/ ٤٩٩ وميزان الاعتدال ١/ ٢٣٩ وقال: «هذا حديث باطل لا أصل له».

على : فوالله الذى لا إله غيره ما هابوا جلال ربهم ما هابوا إلا العشيرة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **واتخذتموه وراءكم ظهريا** ﴾ قال : نبذتم أمره . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال فى الآية : لا تخافونه . وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : تهاونتم به .

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾ .

المراد بالآيات: التوراة . والسلطان المبين :المعجزات [١] . وقيل : المراد بالآيات : هى التسع المذكورة فى غير هذا الموضع ، والسلطان المبين : العصا . وهى وإن كانت من التسع لكنها لما كانت أبهرها أفردت بالذكر . وقيل : المراد بالآيات: ما يفيد الظن ، والسلطان المبين: ما يفيد القطع بما جاء به موسى . وقيل : هما جميعا عبارة عن شىء واحد أى أرسلناه بما يجمع وصف كونه آية ، وكونه سلطانا مبينا . وقيل : إن السلطان المبين : ما أورده موسى على فرعون فى المحاورة بينهما ﴿ **إلى فرعون وملئه** ﴾ أى أرسلناه بذلك إلى هؤلاء ، وقد تقدم أن الملأ أشراف القوم ، وإنما خصهم بالذكر دون سائر القوم ؛ لأنهم أتباع لهم فى الإصدار والإيراد ، وخص هؤلاء الملأ دون فرعون بقوله : ﴿ **فاتبعوا أمر فرعون** ﴾ أى أمره لهم بالكفر ؛ لأن حال فرعون فى الكفر أمر واضح ، إذ كفر قومه من الأشراف وغيرهم إنما هو مستند إلى كفره ، ويجوز أن يراد بأمر فرعون : شأنه وطريقته فيعم الكفر وغيره ﴿ **وما أمر**

---

(١) فى المطبوعة : « المعزات » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

فرعون برشيد ﴾ أى ليس فيه رشد قط ، بل هو غى وضلال ، والرشيد بمعنى المرشد ، والإسناد مجازى ، أو بمعنى ذى رشد ، وفيه تعريض بأن الرشد فى أمر موسى . ﴿ **يقدم قومه يوم القيامة** ﴾ من قدمه بمعنى تقدمه ، أى يصير متقدما لهم يوم القيامة ، سابقا لهم إلى عذاب النار كما كان يتقدمهم فى الدنيا ﴿ **فأوردهم النار** ﴾ أى إنه لا يزال متقدما لهم وهم يتبعونه حتى يوردهم النار . وعبر بالماضى تنبيها على تحقق وقوعه ، ثم ذم الورد الذى أوردهم إليه، فقال :﴿ **وبئس الورد المورود** ﴾ لأن الوارد إلى الماء الذى يقول له الورد ، إنما يرده ليطفئ حر العطش ، ويذهب ظمأه ، والنار على ضد ذلك .

ثم ذمهم بعد ذم المكان الذى يردونه ، فقال : ﴿ **وأتبعوا فى هذه لعنة** ﴾ أى أتبع قوم فرعون مطلقا ، أو الملأ خاصة ، أو هم وفرعون فى هذه الدنيا **لعنة** عظيمة ، أى طردا وإبعادا ﴿ **ويوم القيامة** ﴾ أى وأتبعوا لعنة يوم القيامة يلعنهم أهل المحشر جميعا ، ثم إنه جعل اللعنة رفدا لهم على طريقة التهكم ، فقال : ﴿ **بئس الرفد المرفود** ﴾ . قال الكسائى وأبو عبيدة : رفدته أرفده رفدا : أمنته وأعطيته ، واسم العطية الرفد ، أى بئس العطاء ، والإعانة ما أعطوهم إياه، وأعانوهم به ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى رفدهم ، وهو اللعنة التى أتبعوها فى الدنيا والآخرة ، كأنها لعنة بعد لعنة تمد الأخرى الأولى وتؤيدها . وذكر الماوردى حكاية عن الأصمعى أن الرفد بالفتح : القدح ، وبالكسر : ما فيه من الشراب ، فكأنه ذم ما يستقونه فى النار ، وهذا أنسب بالمقام . وقيل : إن الرفد : الزيادة ، أى بئس ما يرفدون به بعد الغرق ، وهو الزيادة قاله الكلبى .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك** ﴾ أى ما قصه الله سبحانه فى هذه السورة من أخبار الأمم السالفة وما فعلوه مع أنبيائهم ، أى هو مقصوص عليك خبر بعد خبر، وقد تقدم تحقيق معنى القصص ، والضمير فى ﴿ **منها** ﴾ عائد إلى ﴿ **القرى** ﴾ أى من القرى قائم ، ومنها حصيد . والقائم : ما كان قائما على عروشه ، والحصيد : ما لا أثر له . وقيل: القائم : العامر ، والحصيد : الخراب . وقيل : القائم : القرى الخاوية على عروشها، والحصيد : المستأصل بمعنى محصود ، شبه القرى بالزرع القائم على ساقه والمقطوع . قال الشاعر :

والناس فى قسم المنية بينهم كالزرع منه قائم وحصيد

﴿ **وما ظلمناهم** ﴾ بما فعلنا بهم من العذاب ﴿ **ولكن ظلموا أنفسهم** ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿ **فما أغنت عنهم آلهتهم** ﴾ أى فما دفعت عنهم أصنامهم التى يعبدونها من دون الله شيئا من العذاب ﴿ **لما جاء أمر ربك** ﴾ أى لما جاء عذابه ﴿ **وما زادوهم غير تتبيب** ﴾ الهلاك والخسران ، أى ما زادتهم الأصنام التى يعبدونها إلا هلاكا وخسرانا ، وقد كانوا يعتقدون أنها تعينهم على تحصيل المنافع ﴿ **وكذلك أخذ ربك** ﴾ قرأ الجحدرى وطلحة بن مصرف : « أخذ»

على أنه فعل، وقرأ غيرهما : ﴿ **أخذ** ﴾ على المصدر ﴿ **إذا أخذ القرى وهى ظالمة** ﴾ أى أهلها وهم ظالمون ﴿ **إن أخذه** ﴾ أى عقوبته للكافرين ﴿ **أليم شديد** ﴾ أى موجع غليظ ﴿ **إن فى ذلك لآية** ﴾ أى فى أخذ الله سبحانه لأهل القرى ، أو فى القصص الذى قصه على رسوله لعبرة وموعظة ﴿ **لمن خاف عذاب الآخرة** ﴾ لأنهم الذين يعتبرون بالعبر ، ويتعظون بالمواعظ . والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك يوم مجموع له الناس** ﴾ إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة أن يجمع فيه الناس للمحاسبة والمجازاة ﴿ **وذلك** ﴾ أى يوم القيامة ﴿ **يوم مشهود** ﴾ أى يشهده أهل المحشر ، أو مشهود فيه الخلائق ، فاتسع فى الظرف بإجرائه مجرى المفعول ﴿ **وما نؤخره إلا لأجل معدود** ﴾ أى وما نؤخر ذلك اليوم إلا لانتهاء أجل معدود معلوم بالعدد، قد عين الله سبحانه وقوع الجزاء بعده ﴿ **يوم يأت** ﴾ قرأ أهل المدينة وأبو عمرو والكسائى بإثبات الياء فى الدرج ، وحذفها فى الوقف . وقرأ أُبى وابن مسعود بإثباتها وصلا ووقفا . وقرأ الأعمش بحذفها فيهما ، ووجه حذف الياء مع الوقف ما قاله الكسائى : إن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم فحذفت الياء كما تحذف الضمة . ووجه قراءة من قرأ بحذف الياء مع الوصل أنهم رأوا رسم المصحف كذلك ، وحكى الخليل وسيبويه أن العرب تقول : لا أدر، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسر، وأنشد الفراء فى حذف الياء :

كفاك كف ما تليق درهما جودا وأخرى تعط بالسيف الدما

قال الزجاج : والأجود فى النحو إثبات الياء ، والمعنى : حين يأتى يوم القيامة ﴿ **لا تكلم نفس** ﴾ أى لا تتكلم حذفت إحدى التاءين تخفيفا ، أى لا تتكلم فيه نفس إلا بما أذن لها من الكلام . وقيل : لا تكلم بحجة ولا شفاعة ﴿ **إلا بإذنه** ﴾ سبحانه لها فى التكلم بذلك ، وقد جمع بين هذا وبين قوله : ﴿ هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ [المرسلات : ٣٥ ، ٣٦] باختلاف أحوالهم باختلاف مواقف القيامة . وقد تكرر مثل هذا الجمع فى مواضع ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ أى من الأنفس شقى ومنهم سعيد ؛ فالشقى من كتبت عليه الشقاوة، والسعيد من كتبت له السعادة ، وتقديم الشقى على السعيد لأن المقام مقام تحذير ﴿ **فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق** ﴾ أى فأما الذين سبقت لهم الشقاوة فمستقرون فى النار لهم فيها زفير وشهيق . قال الزجاج : الزفير من شدة الأنين ، وهو المرتفع جدا. قال : وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمير ، والشهيق بمنزلة آخره. وقيل : الزفير : الصوت الشديد ، والشهيق : الصوت الضعيف . وقيل : الزفير : إخراج النفس ، والشهيق : رد النفس . وقيل : الزفير : من الصدر ، والشهيق: من الحلق . وقيل: الزفير : ترديد النفس من شدة الخوف ، والشهيق : النفس الطويل الممتد ، والجملة إما مستأنفة كأنه قيل : ما حالهم فيها ؟ أو فى محل نصب على الحال ﴿ **خالدين فيها ما دامت السموات والأرض** ﴾ أى مدة دوامهما .

وقد اختلف العلماء فى بيان معنى هذا التوقيت ؛ لأنه قد علم بالأدلة القطعية تأبيد عذاب الكفار فى النار ، وعدم انقطاعه عنهم ، وثبت أيضا أن السموات والأرض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا ، فقالت طائفة : إن هذا الإخبار جار على ما كانت العرب تعتاده إذا أرادوا المبالغة فى دوام الشىء ، قالوا : هو دائم ما دامت السموات والأرض ، ومنه قولهم : لا آتيك ما جن ليل ، وما اختلف الليل والنهار ، وما ناح الحمام ونحو ذلك . فيكون معنى الآية : أنهم خالدون فيها أبدا لاانقطاع لذلك ولا انتهاء له . وقيل : إن المراد سموات الآخرة وأرضها ، فقد ورد ما يدل على أن للآخرة سموات وأرضا غير هذه الموجودة فى الدنيا ، وهى دائمة بدوام دار الآخرة . وأيضا لابد لهم من موضع يقلهم ، وآخر يظلهم ، وهما أرض وسماء .

قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قد اختلف أهل العلم فى معنى هذا الاستثناء على أقوال : الأول : أنه من قوله : ﴿ **ففى النار** ﴾ كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك . روى هذا أبو نضرة عن أبى سعيد الخدرى . الثانى : أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين ، وأنهم يخرجون بعد مدة من النار ، وعلى هذا يكون قوله سبحانه : ﴿ **فأما الذين شقوا** ﴾ عاما فى الكفرة والعصاة ، ويكون الاستثناء من ﴿ **خالدين** ﴾ ، وتكون « ما » بمعنى من ، وبهذا قال قتادة والضحاك وأبو سنان وغيرهم . وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضرورى بأنه يخرج من النار أهل التوحيد ، فكان ذلك مخصصا لكل عموم . الثالث: أن الاستثناء من الزفير والشهيق ، أى لهم فيها زفير وشهيق ﴿ **إلا ما شاء ربك**﴾ من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق ، قاله ابن الأنبارى . الرابع : أن معنى الاستثناء : أنهم خالدون فيها ما دامت السموات والأرض لا يموتون إلا ما شاء ربك ، فإنه يأمر النار فتأكلهم حتى يفنوا، ثم يجدد الله خلقهم ، روى ذلك عن ابن مسعود . الخامس : أن ﴿ **إلا** ﴾ بمعنى سوى، والمعنى : ما دامت السموات والأرض سوى ما يتجاوز ذلك من الخلود ، كأنه ذكر فى خلودهم ما ليس عند العرب أطول منه ، ثم زاد عليه الدوام الذى لا آخر له ، حكاه الزجاج . السادس : ما روى عن الفراء وابن الأنبارى وابن قتيبة من أن هذا لا ينافى عدم المشيئة كقولك: والله لأضربنه إلا أن أرى غير ذلك ، ونوقش هذا بأن معنى الآية الحكم بخلودهم إلا المدة التى شاء الله، فالمشيئة قد حصلت جزما. وقد حكى هذا القول الزجاج أيضا . السابع: أن المعنى خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك من مقدار موقفهم فى قبوركم وللحساب ، حكاه الزجاج أيضا . الثامن : أن المعنى : خالدين فيها إلا ما شاء ربك من زيادة النعيم لأهل النعيم وزيادة العذاب لأهل الجحيم ، حكاه أيضا الزجاج ، واختاره الحكيم الترمذى . التاسع : أن ﴿ **إلا** ﴾ بمعنى الواو ، قاله الفراء ؛ والمعنى : وما شاء ربك من الزيادة ، قال مكى : وهذا القول بعيد عند البصريين أن تكون إلا بمعنى الواو . العاشر : أن ﴿**إلا**﴾ بمعنى الكاف ، والتقدير : كما شاء ربك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ [النساء : ٢٢] أى كما قد سلف . الحادى عشر :

أن هذا الاستثناء إنما هو على سبيل الاستثناء الذى ندب إليه الشارع فى كل كلام ، فهو على حد قوله : ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ﴾ [الفتح : ٢٧] روى نحو هذا عن أبى عبيد . وهذه الأقوال هى جملة ما وقفنا عليه من أقوال أهل العلم . وقد نوقش بعضها بمناقشات، ودفعت بدفوعات. وقد أوضحت ذلك فى رسالة مستقلة جمعتها فى جواب سؤال ورد من بعض الأعلام .

﴿ **وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها** ما **دامت السموات والأرض** ﴾ قرأ الأعمش وحفص وحمزة والكسائى ﴿ **سعدوا** ﴾ بضم السين ، وقرأ الباقون بفتح السين ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم . قال سيبويه : لا يقال : سعد فلان كما لا يقال : شقى فلان لكونه مما لا يتعدى ، قال النحاس : ورأيت على بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائى بضم السين مع علمه بالعربية ، وهذا لحن لا يجوز . ومعنى الآية كما مر فى قوله : ﴿ **فأما الذين شقوا** ﴾ . قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قد عرف من الأقوال المتقدمة ما يصلح لحمل هذا الاستثناء عليه ﴿ **عطاء غير مجذوذ** ﴾ أى يعطيهم الله عطاء غير مجذوذ ، والمجذوذ : المقطوع ، من جذه يجذه إذا قطعه ، والمعنى : أنه ممتد إلى غير نهاية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يقدم قومه يوم القيامة** ﴾ يقول : أضلهم فأوردهم النار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة فى الآية قال : فرعون يمضى بين أيدى قومه حتى يهجم بهم على النار . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فأوردهم النار** ﴾ قال : الورود الدخول . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بئس الرفد المرفود**﴾ قال : لعنة الدنيا والآخرة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه :﴿ **منها قائم وحصيد** ﴾ يعنى : قرى عامرة وقرى خامدة . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة : ﴿ **منها قائم** ﴾ يرى مكانه ، و﴿ **حصيد**﴾ لا يرى له أثر . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج : ﴿ **منها قائم** ﴾ خاو على عروشه ، و﴿**حصيد** ﴾ ملصق بالأرض . وأخرج أبو الشيخ عن أبى عاصم :﴿ **فما أغنت عنهم** ﴾ قال: ما نفعت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عمر فى قوله ﴿ **وما زادوهم غير تتبيب** ﴾ أى هلكة . وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد قال : تخسير . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة معناه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله سبحانه وتعالى ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾ (١) .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد فى قوله : ﴿ **إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة** ﴾

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٦٨٦) ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٨٣/٦٦) والترمذى فى التفسير (٣١١٠) وقال: « حديث حسن صحيح غريب » والنسائى فى التفسير (٢٦٥) وابن ماجة فى الفتن (٤٠١٨) والبيهقى ٦/٩٤ .

يقول : إنا سوف نفى لهم بما وعدناهم فى الآخرة كما وفينا للأنبياء أنا ننصرهم . وأخرج ابن أبى شيبة وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود**﴾ قال : يوم القيامة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد مثله . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **يوم يأت** ﴾ قال : ذلك اليوم . وأخرج الترمذى وحسنه ، وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : لما نزلت ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ قلت : يا رسول الله ، فعلام نعمل ، على شىء قد فرغ منه ، أو على شىء لم يفرغ منه ؟ قال : « بلى على شىء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر ، ولكن كل ميسر لما خلق له» (١) . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : هاتان من المخبآت قول الله : ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ و﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا ﴾ [المائدة : ١٠٩] أما قوله : ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ فهم قوم من أهل الكتاب من أهل هذه القبلة يعذبهم الله بالنار ما شاء بذنوبهم ، ثم يأذن فى الشفاعة لهم فيشفع لهم المؤمنون فيخرجهم من النار فيدخلهم الجنة ، فسماهم أشقياء حين عذبهم فى النار ﴿ **فأما** (٢) **الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك** ﴾ حين أذن فى الشفاعة لهم وأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة وهم هم ﴿ **وأما الذين سعدوا** ﴾ يعنى بعد الشقاء الذى كانوا فيه ﴿ **ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك** ﴾ يعنى الذين كانوا فى النار .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن قتادة أنه تلا هذه الآية : ﴿ **فأما الذين شقوا** ﴾ فقال : حدثنا أنس أن رسول الله ﷺ قال : « يخرج قوم من النار ولا نقول كما قال أهل حروراء : إن من دخلها بقى فيها » (٣) . وأخرج ابن مردويه عن جابر قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **فأما الذين شقوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن شاء الله أن يخرج أناسا من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل » . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن خالد بن معدان فى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قال : إنها فى التوحيد من أهل القبلة . وأخرج عبد الرزاق وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى نضرة عن جابر بن عبد الله ، أو عن أبى سعيد الخدرى أو رجل من أصحاب النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قال : هذه الآية قاضية على القرآن كله ، يقول حيث كان فى القرآن خالدين فيها تأتى عليه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى عن أبى نضرة قال : ينتهى القرآن كله إلى هذه الآية: ﴿ **إن ربك فعال لما يريد** ﴾ .

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣١١) وقال: « حديث حسن غريب من هذا الوجه ولا نعرفه إلا من حديث عبد الملك ابن عمرو » وأبو يعلى (٥٥٧١) وابن جرير ١٢/ ٧٠ .

(٢) فى المخطوطة « أما » .

(٣) ابن جرير ١٢/ ٧٠ .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ما دامت السموات والأرض** ﴾ قال : لكل جنة سماء وأرض . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن السدى نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن نحوه أيضا . وأخرج البيهقى فى البعث والنشور عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قال : فقد شاء ربك أن يخلد هؤلاء فى النار وأن يخلد هؤلاء فى الجنة . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ قال : استثنى الله من النار أن تأكلهم . وأخرج أبو الشيخ عن السدى فى الآية قال : فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها. فأنزل بالمدينة : ﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا﴾ إلى آخر الآية [النساء : ١٦٨] ، فذهب الرجاء لأهل النار أن يخرجوا منها ، وأوجب لهم خلود الأبد . وقوله : ﴿ **وأما الذين سعدوا** ﴾ الآية . قال : فجاء بعد ذلك من مشيئة الله ما نسخها ، فأنزل بالمدينة : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات** ﴾ إلى قوله : ﴿ ظلا ظليلا ﴾ [النساء : ٥٧] فأوجب لهم خلود الأبد .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن قال : قال عمر : لو لبث أهل النار فى النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه . وأخرج إسحاق بن راهويه عن أبى هريرة قال : سيأتى على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد ، وقرأ : ﴿ **فأما الذين شقوا** ﴾ الآية . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن إبراهيم قال : ما فى القرآن آية أرجى لأهل النار من هذه الآية : ﴿**خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك** ﴾ . قال : وقال ابن مسعود : ليأتين عليها زمان تخفق أبوابها . وأخرج ابن جرير عن الشعبى قال : جهنم أسرع الدارين عمرانا وأسرعهما خرابا . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **إلا ما شاء ربك**﴾ قال : الله أعلم بتثنيته على ما وقعت . وقد روى عن جماعة من السلف مثل ما ذكره عمر وأبو هريرة وابن مسعود كابن عباس وعبد الله بن عمر وجابر وأبى سعيد من الصحابة ، وعن أبى مجلز وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما من التابعين . وورد فى ذلك حديث فى معجم الطبرانى الكبير عن أبى أمامة صدى بن عجلان الباهلى ، وإسناده ضعيف . ولقد تكلم صاحب الكشاف [١] فى هذا الموضع بما كان له فى تركه سعة ، وفى السكوت عنه غنى ، فقال : ولا يخدعنك قول المجبرة [٢] إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار ، فإن الاستثناء الثانى ينادى على تكذيبهم ويسجل بافترائهم ، وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض الثوابت عن ابن عمرو : ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد . ثم قال : وأقول ما كان لابن عمرو فى سيفيه ومقاتلته بهما على بن أبى طالب رضى الله عنه ما يشغله عن تسيير هذا الحديث انتهى .

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٣٠ .

(٢) يريد أهل السنة . أما المعتزلة فيقولون : فاعل الكبيرة فى مرتبة بين المؤمن والكافر ، وخلوده فى النار أبدى، وتحقيق بطلانه فى علم التوحيد .

وأقول : أما الطعن على من قال بخروج أهل الكبائر من النار . فالقائل بذلك يا مسكين رسول الله ﷺ كما صح عنه فى دواوين الإسلام التى هى دفاتر السنة المطهرة ، وكما صح عنه فى غيرها من طريق جماعة من الصحابة يبلغون عدد التواتر ؛ فمالك والطعن على قوم عرفوا ما جهلته وعملوا بما أنت عنه فى مسافة بعيدة . وأى مانع من حمل الاستثناء على هذا الذى جاءت به الأدلة الصحيحة الكثيرة كما ذهب إلى ذلك وقال به جمهور العلماء من السلف والخلف . وأما ما ظنته من أن الاستثناء الثانى ينادى على تكذيبهم ويسجل بافترائهم فلا مناداة ولا مخالفة، وأى مانع من حمل الاستثناء فى الموضعين على العصاة من هذه الأمة ، فالاستثناء الأول يحمل على معنى ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ من خروج العصاة من هذه الأمة من النار ، والاستثناء الثانى يحمل على معنى ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ من عدم خلودهم فى الجنة كما يخلد غيرهم ، وذلك لتأخر خلودهم إليها مقدار المدة التى لبثوا فيها فى النار . وقد قال بهذا من أهل العلم من قدمنا ذكره ، وبه قال ابن عباس حبر الأمة . وأما الطعن على صاحب رسول الله وحافظ سنته وعابد الصحابة عبد الله بن عمرو رضى الله عنه ، فإلى أين يا محمود ، أتدرى ما صنعت ، وفى أى واد وقعت ، وعلى أى جنب سقطت ؟ ومن أنت حتى تصعد إلى هذا المكان وتتناول نجوم السماء بيديك القصيرة ورجلك العرجاء ، أما كان لك فى مكسرى طلبتك من أهل النحو واللغة ما يردك عن الدخول فيما لا تعرف والتكلم بما لا تدرى ، فيالله العجب ما يفعل القصور فى علم الرواية والبعد عن معرفتها إلى أبعد مكان من الفضيحة لمن لم يعرف قدر نفسه ولا أوقفها حيث أوقفها الله سبحانه .

﴿ **فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)** ﴾ .

لما فرغ الله سبحانه من أقاصيص الكفرة وبيان حال السعداء والأشقياء ، سلى رسوله ﷺ بشرح أحوال الكفرة من قومه فى ضمن النهى له عن الامتراء فى أن ما يعبدونه غير نافع ولا ضار ولا تأثير له فى شىء . وحذف النون فى « لاتك » لكثرة الاستعمال ، والمرية : الشك . والإشارة بهؤلاء إلى كفار عصره ﷺ . وقيل : المعنى : لاتك فى شك من بطلان ما يعبد

هؤلاء . وقيل : لاتك فى شك من سوء عاقبتهم . ولا مانع من الحمل على جميع هذه المعانى، وهذا النهى له صهو تعريض لغيره ممن يداخله شىء من الشك ، فإنه ﷺ لا يشك فى ذلك أبدا . ثم بين له سبحانه أن معبودات هؤلاء كمعبودات آبائهم ، أو أن عبادتهم كعبادة آبائهم من قبل ، وفى هذا استئناف تعليل للنهى عن الشك . والمعنى : أنهم سواء فى الشرك بالله وعبادة غيره . فلا يكن فى صدرك حرج مما تراه من قومك ، فهم كمن قبلهم من طوائف الشرك ، وجاء بالمضارع فى ﴿ **كما يعبد آباؤهم** ﴾ لاستحضار الصورة . ثم بين له أنه مجازيهم بأعمالهم فقال : ﴿ **وإنا لموفوهم نصيبهم** ﴾ من العذاب كما وفينا آباءهم لا ينقص من ذلك شىء ، وانتصاب غير الحال ، والتوفية لا تستلزم عدم النقص . فقد يجوز أن يوفى وهو ناقص ، كما يجوز أن يوفى وهو كامل . وقيل : المراد نصيبهم من الرزق . وقيل : ما هو أعم من الخير والشر .

﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ أى : التوراة ﴿ **فاختلف فيه** ﴾ أى : فى شأنه وتفاصيل أحكامه ، فآمن به قوم وكفر به آخرون ، وعمل بأحكامه قوم ، ترك العمل ببعضها آخرون ، فلا يضق صدرك يا محمد بما وقع من هؤلاء فى القرآن ﴿**ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم** ﴾ أى لولا أن الله سبحانه قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح لقضى بينهم ، أى بين قومك ، أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين . فأثيب المحق وعذب المبطل ؛ أو الكلمة هى : إن رحمته سبحانه سبقت غضبه فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك . وقيل : إن الكلمة هى أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال ، وهذا من جملة التسلية له ﷺ ثم وصفهم بأنهم فى شك من الكتاب فقال : ﴿ **وإنهم لفى شك منه مريب** ﴾ أى من القرآن إن حمل على قوم محمد ﷺ ، أو من التوراة إن حمل على قوم موسى عليه السلام ، والمريب : الموقع فى الريبة .

ثم جمع الأولين والآخرين فى حكم توفيه العذاب لهم . أو هو والثواب فقال : ﴿ **وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم** ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو بكر : « وإن » بالتخفيف على أنها إن المخففة من الثقيلة وعملت فى ﴿ **كلا** ﴾ النصب ، وقد جوز عملها الخليل وسيبويه ، وقد جوز البصريون تخفيف « إن » مع إعمالها . وأنكر ذلك الكسائى وقال : ما أدرى على أى شىء قرئ : ﴿ **وإن كلا** ﴾ ؟ وزعم الفراء أن انتصاب ﴿ **كلا** ﴾ بقوله : ﴿ **ليوفينهم** ﴾ ، والتقدير : وإن ليوفينهم كلا . وأنكر ذلك عليه جميع النحويين . وقرأ الباقون بتشديد : ﴿**إن**﴾ ونصبوا بها ﴿ **كلا** ﴾ . وعلى كلا القراءتين فالتنوين فى ﴿ **كلا** ﴾ عوض عن المضاف إليه أى وإن كل المختلفين . وقرأ عاصم وحمزة وابن عامر : ﴿ **لما** ﴾ بالتشديد . وخففها الباقون قال الزجاج : لام ﴿ **لما** ﴾ لام إن ، و« ما » زائدة مؤكدة ، وقال الفراء : « ما » بمعنى من كقوله : ﴿ وإن منكم لمن ليبطئن ﴾ [النساء : ٧٣] أى وإن كلا لمن ليوفينهم ! وقيل : ليست بزائدة بل هى اسم دخلت عليها لام التوكيد ، والتقدير : وإن كلا لمن خلق . قيل :

وهى مركبة ، وأصلها لمن ما ، فقلبت النون ميما واجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الوسطى حكى ذلك النحاس عن النحويين : وزيف الزجاج هذا وقال : « من » اسم على حرفين فلا يجوز حذف النون . وذهب بعض النحويين إلى أن «لما» هذه بمعنى إلا، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ [الطارق : ٤] وقال المازنى : الأصل لما المخففة ثم ثقلت، قال الزجاج : وهذا خطأ ، إنما يخفف المثقل ولا يثقل المخفف . وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: يجوز أن يكون التشديد من قولهم : لممت الشىء أمله : إذا جمعته ، ثم بنى منه فعلى كما قرئ : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى ﴾ [المؤمنون : ٤٤] وأحسن هذه الأقوال أنها بمعنى إلا الاستثنائية . وقد روى ذلك عن الخليل وسيبويه وجميع البصريين ورجحه الزجاج ويؤيده أن فى حرف أبى : « وإن كلا إلا ليوفينهم » كما حكاه أبو حاتم عنه . وقرئ بالتنوين ، أى جميعا . وقرأ الأعمش : « وإن كل لما » بتخفيف إن ورفع كل وتشديد لما . وتكون إن على هذه القراءة نافية ﴿ **إنه بما يعملون** ﴾ أيها المختلفون ﴿ **خبير** ﴾ لا يخفى عليه منه شىء ، والجملة تعليل لما قبلها .

ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بكلمة جامعة لأنواع الطاعة له سبحانه فقال : ﴿ **فاستقم كما أمرت** ﴾ أى كما أمرك الله ، فيدخل فى ذلك جميع ما أمره به وجميع ما نهاه عنه ، لأنه قد أمره بتجنب ما نهاه عنه ، كما أمره بفعل ما تعبده بفعله ، وأمته أسوته فى ذلك . ولهذا قال: ﴿ **ومن تاب معك** ﴾ أى رجع من الكفر إلى الإسلام وشاركك فى الإيمان ، وهو معطوف على الضمير فى : ﴿ **فاستقم** ﴾ ؛ لأن الفصل بين المعطوف والضمير المرفوع المعطوف عليه يقوم مقام التأكيد أى وليستقم من تاب معك وما أعظم موقع هذه الآية وأشد أمرها ، فإن الاستقامة كما أمر الله لا تقوم بها إلا الأنفس المطهرة والذوات المقدسة ، ولهذا يقول المصطفى ﷺ : «شيبتنى هود » كما تقدم ﴿ **ولا تطغوا** ﴾ الطغيان: مجاوزة الحد. لما أمر الله سبحانه بالاستقامة المذكورة بين أن الغلو فى العبادة ، والإفراط فى الطاعة على وجه تخرج به عن الحد الذى حد . والمقدار الذى قدره ممنوع منه منهى عنه ، وذلك كمن يصوم ولا يفطر ، ويقوم الليل ولا ينام ، ويترك الحلال الذى أذن الله به ورغب فيه ، ولهذا يقول الصادق المصدوق فيما صح عنه: « أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأنكح النساء ؛ فمن رغب عن سنتى فليس منى[1] » ، والخطاب للنبى ﷺ ولأمته تغليبا لحالهم على حاله ، أو النهى عن الطغيان خاص بالأمة. ﴿**إنه بما تعملون بصير** ﴾ يجازيكم على حسب ما تستحقون ، والجملة تعليل لما قبلها .

قوله : ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا** ﴾ . قرأ الجمهور بفتح الكاف ، وقرأ طلحة بن مصرف وقتادة وغيرهما «تركنوا » بضم الكاف . قال الفراء : وهى لغة تميم وقيس ، قال أبو عمرو : وقراءة الجمهور هى لغة أهل الحجاز ، قال : ولغة تميم بكسر التاء وفتح الكاف . وهم

(١) أحمد ٢/١٥٨ ومسلم فى النكاح (١٤٠١ / ٥) .

يكسرون حرف المضارعة فى كل ما كان من باب علم يعلم . وقرأ ابن أبى عبلة بضم التاء وفتح الكاف على البناء للمفعول من أركنه . قال فى الصحاح : ركن إليه يركن بالضم . وحكى أبو زيد : ركن إليه بالكسر يركن ركونا فيهما ، أى مال إليه وسكن قال الله تعالى : ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا** ﴾ وأما ما حكى أبو زيد ركن يركن بالفتح فيهما فإنما هو على الجمع بين اللغتين ، انتهى . وقال فى شمس العلوم : الركون السكون يقال : ركن إليه ركونا ، قال الله تعالى : ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا** ﴾ انتهى . وقال فى القاموس : ركن إليه كنصر وعلم. ومنع، ركونا : مال وسكن ، انتهى ، فهؤلاء الأئمة من رواة اللغة فسروا الركون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد بما قيده به صاحب الكشاف حيث قال : فإن الركون هو الميل اليسير [١] ، وهكذا فسره المفسرون بمطلق الميل والسكون من غير تقييد إلا من كان من المتقيدين بما ينقله صاحب الكشاف ؛ ومن المفسرين من ذكر فى تفسير الركون قيودا لم يذكرها أئمة اللغة. قال القرطبى فى تفسيره : الركون حقيقته الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشىء والرضا به[٢] . ومن أئمة التابعين من فسر الركون بما هو أخص من معناه اللغوى . فروى عن قتادة وعكرمة فى تفسير الآية أن معناها : لا تودوهم ولا تطيعوهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير الآية : الركون هنا :الإدهان ، وذلك أن لا ينكر عليهم كفرهم . وقال أبو العالية : معناه لا ترضوا أعمالهم .

وقد اختلف أيضا الأئمة من المفسرين فى هذه الآية هل هى خاصة بالمشركين أو عامة ؟ فقيل : خاصة ، وإن معنى الآية النهى عن الركون إلى المشركين ، وأنهم المرادون بالذين ظلموا ، وقد روى ذلك عن ابن عباس . وقيل : إنها عامة فى الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم ، وهذا هو الظاهر من الآية ، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فإن قلت : وقد وردت الأدلة الصحيحة البالغة عدد التواتر الثابتة عن رسول الله ﷺ ثبوتا لا يخفى على من له أدنى تمسك بالسنة المطهرة بوجوب طاعة الأئمة والسلاطين والأمراء حتى ورد فى بعض ألفاظ الصحيح : « أطيعوا السلطان وإن كان عبدا حبشيا رأسه كالزبيبة » [٣] . وورد وجوب طاعتهم ما أقاموا الصلاة ، وما لم يظهر منهم الكفر البواح ، وما لم يأمروا بمعصية الله . وظاهر ذلك أنهم وإن بلغوا فى الظلم إلى أعلى مراتبه ، وفعلوا أعظم أنواعه مما لم يخرجوا به إلى الكفر البواح ، فإن طاعتهم واجبة حيث لم يكن ما أمروا به من معصية الله ؛ ومن جملة ما يأمرون به تولى الأعمال لهم . والدخول فى المناصب الدينية التى ليس الدخول فيها من معصية الله ؛ ومن جملة ما يأمرون به الجهاد ، وأخذ الحقوق الواجبة من الرعايا ، وإقامة الشريعة بين المتخاصمين منهم ، وإقامة الحدود على من وجبت عليه ، وبالجملة فطاعتهم واجبة على كل من صار تحت أمرهم ونهيهم فى كل ما

(١) الكشاف ٢/ ٤٣٣ . (٢) القرطبى ٥/ ٣٣٣٦ .

(٣) أحمد ٣/ ١١٤ ، ١٧١ والبخارى فى الأحكام (٧١٤٢) وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٦٠) .

يأمرون به مما لم يكن من معصية الله . ولابد فى مثل ذلك من المخالطة لهم والدخول عليهم ، ونحو ذلك مما لابد منه ، ولا محيص عن هذا الذى ذكرناه من وجوب طاعتهم بالقيود المذكورة لتواتر الأدلة الواردة به ، بل قد ورد به الكتاب العزيز ﴿ أطيعوا[1] الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ [النساء : ٥] بل ورد أنهم يعطون الذى لهم من الطاعة ، وإن منعوا ما هو عليهم للرعايا كما فى بعض الأحاديث الصحيحة : « أعطوهم الذى لهم ، واسألوا الله الذى لكم » ، بل ورد الأمر بطاعة السلطان ، وبالغ فى ذلك النبى ﷺ حتى قال : « وإن أخذ مالك وضرب ظهرك». فإن اعتبرنا مطلق الميل والسكون فمجرد هذه الطاعة المأمور بها مع ما تستلزمه من المخالطة هى ميل وسكون ، وإن اعتبرنا الميل والسكون ظاهرا وباطنا فلا يتناول النهى فى هذه الآية من مال إليهم فى الظاهر لأمر يقتضى ذلك شرعا كالطاعة ، أو للتقية ومخافة الضرر منهم، أو لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة ، إذا لم يكن له ميل إليهم فى الباطن ولا محبة ولا رضا بأفعالهم . قلت : أما الطاعة على عمومها بجميع أقسامها حيث لم تكن فى معصية الله ، فهى على فرض صدق مسمى الركون عليها مخصصة لعموم النهى عنه بأدلتها التى قدسنا الإشارة إليها ، ولاشك فى هذا ولا ريب ، فكل من أمروه ابتداء أن يدخل فى شىء من الأعمال التى أمرها إليهم مما لم يكن من معصية الله كالمناصب الدينية ونحوها إذا وثق من نفسه بالقيام بما وكل إليه ، فذلك واجب عليه فضلا عن أن يقال جائز له. وأما ما ورد من النهى عن الدخول فى الإمارة ، فذلك مقيد بعدم وقوع الأمر ممن تجب طاعته من الأئمة والسلاطين والأمراء جمعا بين الأدلة ، أو مع ضعف المأمور عن القيام بما أمر به كما ورد تعليل النهى عن الدخول فى الإمارة بذلك فى بعض الأحاديث الصحيحة، وأما مخالطتهم والدخول عليهم لجلب مصلحة عامة أو خاصة أو دفع مفسدة عامة أو خاصة مع كراهة ما هم عليه من الظلم ، وعدم ميل النفس إليهم ومحبتها لهم ، وكراهة المواصلة لهم لولا جلب تلك المصلحة أو دفع تلك المفسدة فعلى فرض صدق مسمى الركون على هذا ، فهو مخصص بالأدلة الدالة على مشروعية جلب المصالح ودفع المفاسد ، والأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى، ولا تخفى على الله خافية ؛ وبالجملة فمن ابتلى بمخالطة من فيه ظلم فعليه أن يزن أقواله وأفعاله وما يأتى وما يذر بميزان الشرع ، فإن زاغ عن ذلك « فعلى نفسها براقش تجنى » ، ومن قدر على الفرار منهم قبل أن يؤمر من جهتهم بأمر يجب عليه طاعته فهو الأولى له ، والأليق به. يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين، اجعلنا من عبادك الصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا يخافون فيك لومة لائم ، وقونا على ذلك ويسره لنا ، وأعنا عليه . قال القرطبى فى تفسيره : وصحبة الظالم على التقية مستثناة من النهى بحال الاضطرار انتهى[2]. وقال النيسابورى فى تفسيره : قال المحققون : الركون المنهى عنه هو الرضا

(١) فى المطبوعة : « وأطيعوا » .
(٢) القرطبى ٥/ ٣٣٣٦ .

بما عليه الظلمة ، أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم ، ومشاركتهم فى شىء من تلك الأبواب ؛ فأما مداخلتهم لرفع ضرر واجتلاب منفعة عاجلة ، فغير داخلة فى الركون . قال: وأقول هذا من طريق المعاش والرخصة ، ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكلية ﴿ أليس الله بكاف عبده﴾ [الزمر: ٣٦] انتهى .

قوله : ﴿ **فتمسكم النار** ﴾ بسبب الركون إليهم ، وفيه إشارة إلى أن الظلمة أهل النار ، أو كالنار ، ومصاحبة النار توجب لا محالة مس النار ، وجملة : ﴿ **وما لكم من دون الله من أولياء** ﴾ فى محل نصب على الحال من قوله : فتمسكم النار ، والمعنى : أنها تمسكم النار حال عدم وجود من ينصركم وينقذكم منها ﴿ **ثم لا تنصرون** ﴾ من جهة الله سبحانه ، إذ قد سبق فى علمه أنه يعذبكم بسبب الركون الذى نهيتم عنه فلم تنتهوا عنادا وتمردا .

قوله : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار** ﴾ لما ذكر الله سبحانه الاستقامة خص من أنواعها إقامة الصلاة لكونها رأس الإيمان ، وانتصاب ﴿ **طرفى النهار** ﴾ على الظرفية ، والمراد : صلاة الغداة والعشى ، وهما الفجر والعصر . وقيل : الظهر موضع العصر . وقيل : الطرفان الصبح والمغرب . وقيل : هما الظهر والعصر . ورجح ابن جرير أنهما الصبح والمغرب ، قال: والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطرفين الصبح ، فدل على أن الطرف الآخر المغرب ﴿**وزلفا من الليل** ﴾ أى فى زلف من الليل . والزلف : الساعات القريبة بعضها من بعض ، ومنه سميت المزدلفة لأنها منزل بعد عرفة بقرب مكة . وقرأ ابن القعقاع وأبو إسحاق وغيرهما: « زلفا » بضم اللام جمع زليف ، ويجوز أن يكون واحده زلفة . وقرأ ابن محيصن بإسكان اللام . وقرأ مجاهد : « زلفى » مثل فعلى . وقرأ الباقون : « زلفا » بفتح اللام كغرفة وغرف. قال ابن الأعرابى : الزلف الساعات واحدتها زلفة . وقال قوم : الزلفة أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس . قال الأخفش : معنى ﴿ **زلفا من الليل** ﴾ : صلاة الليل ، ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ أى إن الحسنات على العموم ، ومن جملتها بل عمادها الصلاة يذهبن السيئات على العموم . وقيل : المراد بالسيئات : الصغائر ، ومعنى ﴿ **يذهبن السيئات** ﴾: يكفرنها حتى كأنها لم تكن ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ إلى قوله : ﴿**فاستقم** ﴾ وما بعده . وقيل : إلى القرآن ذكرى للذاكرين ، أى موعظة للمتعظين ﴿ **واصبر**﴾ على ما أمرت به من الاستقامة ، وعدم الطغيان ، والركون إلى الذين ظلموا ! وقيل : إن المراد الصبر على ما أمر به دون ما نهى عنه ، لأنه لا مشقة فى اجتنابه وفيه نظر ، فإن المشقة فى اجتناب المنهى عنه كائنة ، وعلى فرض كونها دون مشقة امتثال الأمر فذلك لا يخرجها عن مطلق المشقة ﴿ **فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**﴾ أى يوفيهم أجورهم ولا يضيع منها شيئا فلا يهمله ولا يبخسه بنقص .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص** ﴾ قال : ما قدر لهم من خير أو شر . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد فى الآية قال : من العذاب . وأخرجا عن أبى العالية .

قال من الرزق . وأخرجا أيضا عن قتادة فى قوله : ﴿ **فاستقم كما أمرت** ﴾ قال : أمر الله نبيه أن يستقيم على أمره ، ولا يطغى فى نعمته ، وأخرج أبو الشيخ عن سفيان فى الآية قال: استقم على القرآن . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية ﴿**فاستقم كما أمرت** ﴾ قال : شمروا شمروا فما رؤى ضاحكا. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ **ومن تاب معك** ﴾ قال : آمن . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن العلاء بن عبد الله بن بدر فى قوله : ﴿ **ولا تطغوا** ﴾ قال : لم يرد أصحاب النبى ﷺ إنما عنى الذين يجيئون من بعدهم . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس : ﴿ **ولا تطغوا** ﴾ يقول : لا تظلموا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد قال : الطغيان : خلاف أمره وارتكاب معصيته . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا** ﴾ قال : يعنى الركون إلى الشرك . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه ﴿ **ولا تركنوا** ﴾ قال : لا تميلوا. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : ﴿ **ولا تركنوا** ﴾ لا تدهنوا . وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة فى الآية قال : أن تطيعوهم أوتودوهم أو تصطنعوهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار**﴾ قال : صلاة المغرب والغداة ﴿ **وزلفا من الليل** ﴾ قال : صلاة العتمة . وأخرجا عن الحسن قال: الفجر والعصر ﴿ **وزلفا من الليل** ﴾ قال : هما زلفتان : صلاة المغرب وصلاة العشاء . قال : وقال رسول الله ﷺ : « هما زلفتا الليل » . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى الطرفين قال : صلاة الفجر ، وصلاتى العشى : يعنى الظهر والعصر ﴿ **وزلفا من الليل** ﴾ قال : المغرب والعشاء . وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وزلفا من الليل** ﴾ قال : ساعة بعد ساعة ، يعنى صلاة العشاء الآخرة . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس أنه كان يستحب تأخير العشاء ، ويقرأ : ﴿ **زلفا من الليل** ﴾ .

وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ قال : الصلوات الخمس. وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة ومحمد ابن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ قال : الصلوات الخمس، والباقيات الصالحات: الصلوات الخمس. وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود : أن رجلا أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها ، فأنزلت عليه : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ فقال الرجل: يارسول الله إلى هذه؟ قال: « هى لمن عمل بها من أمتى » (١). وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم عن

(١) البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٢٦) وفى التفسير (٤٦٨٧) ومسلم فى التوبة (٢٧٦٣/ ٣٩، ٤٠) والترمذى فى التفسير (٣١١٤) وقال : « حديث حسن صحيح » وابن ماجة فى الزهد (٤٢٥٤) وفى إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٩٨).

أبى أمامة ؛ أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، أقم فى حد الله . مرة أو مرتين . فأعرض عنه ، ثم أقيمت الصلاة ، فلما فرغ قال :« أين الرجل ؟ » قال : أنا ذا . قال : «أتممت الوضوء وصليت معنا آنفا ؟» قال : نعم . قال : « فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد » ، وأنزل الله حينئذ على رسوله :﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار** ﴾ (١). وفى الباب أحاديث كثيرة بألفاظ مختلفة ، ووردت أحاديث أيضا أن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن(٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ قال : هم الذين يذكرون الله فى السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، والعافية والبلاء . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال :لما نزع الذى قبل المرأة تذكر فذلك قوله :﴿ **ذكرى للذاكرين** ﴾ .

﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)** ﴾.

هذا عود إلى أحوال الأمم الخالية لبيان أن سبب حلول عذاب الاستئصال بهم أنه ما كان فيهم من ينهى عن الفساد ويأمر بالرشاد . فقال : ﴿ **فلولا** ﴾ أى فهلا ﴿ **كان من القرون** ﴾ الكائنة ﴿ **من قبلكم أولوا بقية** ﴾ من الرأى والعقل والدين ﴿ **ينهون** ﴾ قومهم ﴿ **عن الفساد فى الأرض** ﴾ ويمنعونهم من ذلك لكونهم ممن جمع الله له بين جودة العقل ، وقوة الدين . وفى هذا من التوبيخ للكفار ما لا يخفى . والبقية فى الأصل لما يستبقيه الرجل مما يخرجه ، وهو لا يستبقى إلا أجوده وأفضله ، فصار لفظ البقية مثلا فى الجودة ، والاستثناء فى ﴿ **إلا قليلا** ﴾ منقطع ، أى لكن قليلا ممن أنجينا منهم ينهون عن الفساد فى الأرض . وقيل: هو متصل لأن فى حرف التحضيض معنى النفى ، فكأنه قال : ما كان فى القرون أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، و« من » فى : ﴿ **ممن أنجينا** ﴾ بيانية، لأنه لم ينج إلا

---

(١) أحمد (٥/ ٢٥١ ، ٢٥٢)، ومسلم فى التوبة (٢٧٦٥/ ٤٥) وأبو داود فى الحدود (٤٣٨١).

(٢) أحمد (٢/ ٤٨٤) ومسلم فى الطهارة (٢٣٣/ ١٤) والترمذى فى الصلاة (٢١٤) وقال:«حديث حسن صحيح».

الناهون . قيل : هؤلاء القليل هم قوم يونس لقوله فيما مر : ﴿ إلا قوم يونس﴾ [يونس:٩٨] وقيل : هم أتباع الأنبياء وأهل الحق من الأمم على العموم ﴿ **واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه** ﴾ معطوف على مقدر يقتضيه الكلام . تقديره : إلا قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد ؛ والمعنى: أنه اتبع الذين ظلموا بسبب مباشرتهم الفساد وتركهم للنهى عنه ما أترفوا فيه. والمترف : الذى أبطرته النعمة ، يقال : صبى مترف : منعم البدن ، أى صاروا تابعين للنعم التى صاروا بها مترفين من خصب العيش ، ورفاهية الحال ، وسعة الرزق، وآثروا ذلك على الاشتغال بأعمال الآخرة واستغرقوا أعمارهم فى الشهوات النفسانية . وقيل : المراد بالذين ظلموا : تاركو النهى . ورد بأنه يستلزم خروج مباشرى الفساد عن الذين ظلموا وهم أشد ظلما ممن لم يباشر ، وكان ذنبه ترك النهى . وقرأ أبو عمرو فى رواية عنه:« وأتبع الذين ظلموا » على البناء للمفعول ، ومعناه : أتبعوا جزاء ما أترفوا فيه ، وجملة:﴿ **وكانوا مجرمين** ﴾ متضمنة لبيان سبب إهلاكهم ، وهى معطوفة على أترفوا أى وكان هؤلاء الذين أتبعوا ما أترفوا فيه مجرمين ، والإجرام : الآثام والمعنى :أنهم أهل إجرام بسبب اتباعهم الشهوات ،واشتغالهم بها عن الأمور التى يحق الاشتغال بها ،ويجوز أن تكون جملة ﴿ **وكانوا مجرمين** ﴾ معطوفة على ﴿**واتبع الذين ظلموا** ﴾ أى اتبعوا شهواتهم وكانوا بذلك الاتباع مجرمين .

﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ أى ما صح ولا استقام أن يهلك الله سبحانه أهل القرى بظلم يتلبسون به وهو الشرك ، والحال أن أهلها مصلحون فيما بينهم فى تعاطى الحقوق لا يظلمون الناس شيئا ، والمعنى : أنه لا يهلكهم بمجرد الشرك وحده حتى ينضم إليه الفساد فى الأرض ، كما أهلك قوم شعيب بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم ، وأهلك قوم لوط بسبب ارتكابهم للفاحشة الشنعاء . وقيل : إن قوله : ﴿ **بظلم**﴾ حال من الفاعل ، والمعنى : وما كان الله ليهلك القرى ظالما لهم حال كونهم مصلحين غير مفسدين فى الأرض . ويكون المراد بالآية تنزيهه سبحانه وتعالى عن صدور ذلك منه بلا سبب يوجبه على تصوير ذلك بصورة ما يستحيل منه ، وإلا فكل أفعاله كائنة ما كانت لا ظلم فيها، فإنه سبحانه ليس بظلام للعبيد . قال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى : وما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمه ، وإن كان على نهاية الصلاح ؛ لأن تصرفه فى ملكه ، دليله قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ﴾ [يونس : ٤٤] وقيل : المعنى : وما كان ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون ، أى مخلصون فى الإيمان . فالظلم المعاصى على هذا .

﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة** ﴾ أى أهل دين واحد ، إما أهل ضلالة ، أو أهل هدى . وقيل : معناه : جعلهم مجتمعين على الحق غير مختلفين فيه ، أو مجتمعين على دين الإسلام دون سائر الأديان ولكنه لم يشأ ذلك فلم يكن، ولهذا قال : ﴿ **ولا يزالون**

مختلفين ﴾ فى ذات بينهم على أديان شتى ، أو لا يزالون مختلفين فى الحق أو دين الإسلام . وقيل : مختلفين فى الرزق : فهذا غنى ، وهذا فقير ﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ بالهداية إلى الدين الحق ، فإنهم لم يختلفوا ، أو إلا من رحم ربك من المختلفين فى الحق أو دين الإسلام ، بهدايته إلى الصواب الذى هو حكم الله ، وهو الحق الذى لا حق غيره ، أو إلا من رحم ربك بالقناعة . والأولى تفسير لجعل الناس أمة واحدة بالمجتمعة على الحق حتى يكون معنى الاستثناء فى ﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ واضحا غير محتاج إلى تكلف ﴿ **ولذلك** ﴾ أى لما ذكر من الاختلاف ﴿ **خلقهم** ﴾ أو ولرحمته خلقهم ، وصح تذكير الإشارة إلى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقى . والضمير فى خلقهم راجع إلى الناس ، أو إلى ﴿ **من** ﴾ فى : ﴿ **من رحم ربك** ﴾ . وقيل : الإشارة بذلك إلى مجموع الاختلاف والرحمة ، ولا مانع من الإشارة بها إلى شيئين كما فى قوله : ﴿ عوان بين ذلك ﴾ [البقرة : ٦٨] . ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ [الإسراء : ١١٠] ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ [يونس : ٥٨] قوله : ﴿ **وتمت كلمة ربك** ﴾ معنى تمت: ثبتت، كما قدره فى أزله ، وإذا تمت امتنعت من التغيير والتبديل . وقيل : الكلمة هى قوله : ﴿ **لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ أى ممن يستحقها من الطائفتين، والتنوين فى ﴿ **وكلا** ﴾ للتعويض عن المضاف إليه ، وهو منصوب بـ ﴿ **نقص** ﴾ ، والمعنى : وكل نبأ من أنباء الرسل مما يحتاج إليه نقص عليك ، أى ، نخبرك به . وقال الأخفش : ﴿**كلا** ﴾ حال مقدمة ، كقولك : كلا ضربت القوم، والأنباء: الأخبار ﴿ **ما نثبت به فؤادك** ﴾ أى ما نجعل به فؤادك مثبتا بزيادة يقينه بما قصصناه عليك ووفور طمأنينته ؛ لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ فى النفس وأقوى للعلم ، وجملة : ﴿ **ما نثبت** ﴾ بدل من أنباء الرسل ، وهو بيان لكلا ، ويجوز أن يكون ﴿ **ما نثبت** ﴾ مفعولا لنقص ، ويكون ﴿ **كلا** ﴾ مفعولا مطلقا، والتقدير : كل أسلوب من أساليب الاقتصاص نقص عليك ما نثبت به فؤادك ﴿**وجاءك فى هذه الحق** ﴾ أى جاءك[1] فى هذه السورة ، أو فى هذه الأنباء البراهين القاطعة الدالة على صحة المبدأ والمعاد ﴿**وموعظة** ﴾ يتعظ بها الواقف عليها من المؤمنين ﴿ **وذكرى** ﴾ يتذكر بها من تفكر فيها منهم ، وخص المؤمنين لكونهم المتأهلين للاتعاظ والتذكر ، وقيل : المعنى : وجاءك فى هذه الدنيا الحق ، وهو النبوة ؛ وعلى التفسير الأول يكون تخصيص هذه السورة بمجىء الحق فيها مع كونه قد جاء فى غيرها من السور لقصد بيان اشتمالها على ذلك ، لا بيان كونه موجودا فيها دون غيرها .

﴿ **وقل للذين لا يؤمنون** ﴾ بهذا الحق ولا يتعظون ولا يتذكرون ﴿ **اعملوا على مكانتكم**﴾ على تمكنكم وحالكم وجهتكم ، وقد تقدم تحقيقه ﴿ **إنا عاملون** ﴾ على مكانتنا وحالنا وجهتنا من الإيمان بالحق والاتعاظ والتذكر ، وفى هذا تشديد للوعيد والتهديد لهم ،

---

(١) فى المخطوطة: «جاك» وهى على عادة المصنف فى تليين الهمزة.

وكذلك قوله : ﴿ **وانتظروا إنا منتظرون** ﴾ فيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى ، والمعنى : انتظروا عاقبة أمرنا فإنا منتظرون عاقبة أمركم وما يحل بكم من عذاب الله وعقوبته .

﴿ **ولله غيب السموات والأرض** ﴾ أى علم جميع ما هو غائب عن العباد فيهما ، وخص الغيب من كونه يعلم بما هو مشهود ، كما يعلم بما هو مغيب ، لكونه من العلم الذى لا يشاركه فيه غيره . وقيل : إن غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض ، والأول أولى ، وبه قال أبوعلى الفارسى وغيره ، وأضاف الغيب إلى المفعول توسعا ﴿ **وإليه يرجع الأمر كله** ﴾ أى يوم القيامة فيجازى كلا بعمله. وقرأ نافع وحفص : ﴿ **يرجع**﴾ على البناء للمفعول . وقرأ الباقون على البناء للفاعل ﴿ **فاعبده وتوكل عليه** ﴾ فإنه كافيك كل ما تكره ، ومعطيك كل ما تحب ، والفاء لترتيب الأمر بالعبادة ، والتوكل على كون مرجع الأمور كلها إلى الله سبحانه ﴿ **وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ بل عالم بجميع ذلك ومجاز عليه إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وقرأ أهل المدينة والشام وحفص ﴿ **تعملون**﴾ بالفوقية على الخطاب . وقرأ الباقون بالتحتية .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله : ﴿ **فلولا** ﴾ قال : فهلا . وأخرج ابن مردويه عن أبى بن كعب قال : أقرأنى رسول الله ﷺ : ﴿ **فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية** ﴾ وأحلام ينهون عن الفساد فى الأرض . وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج ﴿ **إلا قليلا ممن أنجينا منهم** ﴾ يستقلهم الله من كل قوم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ **واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه** ﴾ قال : فى ملكهم وتجبرهم وتركهم الحق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريج قال : قال ابن عباس أترفوا فيه: أبطروا فيه .

وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمى عن جرير قال : سمعت رسول الله ﷺ يسئل عن تفسير هذه الآية ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « وأهلها ينصف بعضهم بعضا » (١). وأخرجه ابن أبى حاتم والخرائطى فى مساوئ الأخلاق موقوفا على جرير . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك ﴿**ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة** ﴾ قال : أهل دين واحد .أهل ضلالة أو أهل هدى . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **ولا يزالون مختلفين** ﴾ قال : أهل الحق وأهل الباطل ﴿ **إلا من رحم ربك**﴾ قال : أهل الحق ﴿ **ولذلك خلقهم** ﴾ قال : للرحمة . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عنه ﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ قال : إلا أهل رحمته فإنهم لا يختلفون . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : لا يزالون مختلفين فى الأهواء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عطاء بن أبى رباح ﴿ **ولا يزالون مختلفين** ﴾ أى اليهود والنصارى والمجوس والحنيفية . وهم

(١) الطبرانى (٢٢٨١) .

الذين رحم ربك الحنيفية . وأخرج هؤلاء عن الحسن فى الآية قال : الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك ، فمن رحم ربك غير مختلف ﴿ **ولذلك خلقهم** ﴾ قال : للاختلاف. وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد : ﴿ **ولا يزالون مختلفين** ﴾ قال : أهل الباطل ﴿**إلا من رحم ربك**﴾ قال : أهل الحق ﴿ **ولذلك خلقهم** ﴾ قال : للرحمة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة نحوه . وأخرجا عن الحسن قال : لا يزالون مختلفين فى الرزق . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ولذلك خلقهم قال : خلقهم فريقين : فريقا يرحم فلا يختلف ، وفريقا لا يرحم يختلف . فذلك قوله : ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك** ﴾ لتعلم يا محمد ما لقيت الرسل قبلك من أممهم . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : ﴿ **وجاءك فى هذه الحق** ﴾ قال : فى هذه السورة . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبى موسى الأشعرى مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير مثله أيضا . وأخرج أبو الشيخ عن الحسن مثله . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : فى هذه الدنيا .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : ﴿ **اعملوا على مكانتكم** ﴾ أى منازلكم . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج : ﴿ **وانتظروا إنا منتظرون** ﴾ قال : يقول : انتظروا مواعيد الشيطان إياكم على ما يزين لكم ، وفى قوله : ﴿ **وإليه يرجع الأمر كله** ﴾ قال : فيقضى بينهم بحكم العدل . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وابن الضريس فى فضائل القرآن وابن جرير وأبو الشيخ عن كعب قال : فاتحة التوراة فاتحة الأنعام ، وخاتمة التوراة خاتمة هود ﴿ **ولله غيب السموات والأرض** ﴾ إلى آخر الآية .

بحمد الله تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث

وأوله تفسير سورة يوسف